دار التوحيد لتحفيظ القرآن الكريم بجدة
ت: ٢٦١٩٥٦٤

وقفات تربوية

مع

سورة إبراهيم

برنامج التدبر الملزمة العاشرة

جمع وإعداد: أ/ نجلاء السبيّل

الفهـرس

العنوان	الصفحة
اللقاء الأول	
التعريف بالسورة	٢
مقصود السورة	٢
الوقفة الأولى: وقفة مع الهداية	٤
ما هو هذا الصراط وما هو وصفه؟	٤
اللقاء الثاني	
علاقة الصبر والشكر بالانتفاع بآيات الله	١٧
وقفة تدبرية مع السنن الإلهية	١٧
اليوم الآخر في سورة إبراهيم	٢٣
وقفة تدبرية مع الآيات	٢٤
اللقاء الثالث	
وقفة تدبرية مع المثل المضروب في سورة إبراهيم	٢٨
كيف تُسقى شجرة الإيمان	٣٠
ما هي الشعب التي تغذي وتسقي شجرة الإيمان في القلب؟	٣٢
ثمرات الإيمان	٣٦
اللقاء الرابع	
قصة إبراهيم عليه السلام	٤٠
حياته ودعوته	٤٢
وقفة تدبرية (١)	٤٣
وقفة تدبرية (٢)	٤٥
وقفة تدبرية مع دعوات الخليل عليه الصلاة والسلام	٤٧
وقفة تدبرية مع الأبناء والتربية	٤٨

اللقـــاء الأول

اللقاء الأول

التعريف بالسورة:

- السورة مكية عدد آياتها اثنتان وخمسون آية.

مقصود السورة:

- وهو المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة: التوحيد والدعوة إلى التوحيد.

وهذا واضح من خلال اسمها وورود قصة إبراهيم عليه السلام فيها.

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو إمام الموحدين، وهو رافعُ شعار التوحيد، ولواء التوحيد، حياته كلها كانت من أجل التوحيد وإرساء دعائم التوحيد، مناظراته مع أبيه وقومه كانت أيضاً من أجل التوحيد، حتى دعاؤه كان يقطر بالتوحيد، امتلأ قلبه بحب ربه، وظهر هذا الحب عليه في كلامه وفي تعابيره وفي تعريفه للناس بربه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

- يتجلى مقصود السورة أيضاً من المثل المضروب فيها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤]، وهو مثلٌ مضروب في كلمة التوحيد وقيام شجرة الإيمان في قلب الموحد وبركة التوحيد على أهله.

- التوحيد أيضاً مبثوث في آياتها ومواضيعها. تأمل:

- ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم:١٠]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [ابراهيم:٢٨]
- ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:٥٢]

ومواضيعها بالجملة تحدثت عن الرسل ودعوتهم، وعن البعث والجزاء، وذكر القيامة وأهوالها والنار وعذابها والجنة ونعيمها.

وكل هذا ترسيخ للإيمان باليوم الآخر وهو ركن من أركان العقيدة والتوحيد.

والخلاصة:

أن السورة أحيطت بسياج التوحيد كإحاطة السوار بالمعصم.

-.-

- **السورة بدأت بالأحرف المقطعة (ألم)**

هذه الأحرف هي مما استأثر الله بعلمه، ولكن مما لا شك فيه أن الله لم ينزلها عبثاً ولا سدى، لها معنى لا يعلمه إلا الله، وأقوى الأقوال فيها أنها من إعجاز القرآن لأن الله تحدى بها العرب بأنها حروف لغتكم التي تتكلمون بها وتقولون بها الشعر وتقولون بها النثر والقرآن جاء بنفس اللغة فتحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بسورة مثل هذا القرآن أو حتى بآية، لكنهم لا يستطيعون فالقرآن كلام الله، منزّل من عند الله ولا يمكن لمخلوق مهما بلغت فصاحته وعربيته ولسانه أن يأتي بمثل هذا القرآن.

-.-

الوقفات التدبرية

الوقفة الأولى: وقفة مع الهداية.

قال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)﴾

الغاية الكبرى والهدف الأسمى من إنزال هذا الكتاب هو هداية الناس، دلالة الناس وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، إخراج الناس من ضروب الشرك والجهل والضلال إلى نور العلم والهداية والإيمان، وهداية الناس إلى صراط العزيز الحميد.

- ما هو هذا الصراط؟ وما هو وصفه؟؟

يصفه لنا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "**خطّ لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال هذا سبيل الله، ثم رسم خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سُبُـل على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو عليه ثم قرأ** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] [الأنعام:١٥٣]".

أولاً: هذا الصراط الذي هو طريق الله، وهو دين الله وشريعته، هو طريقٌ واحدٌ لا ثاني له.

ثانياً: مستقيمٌ لا عِوج فيه ولا ميلان، وليس فيه انحناءات ولا انحرافات ولا مداخل ومخارج، إنما هو طريق مستقيم ممتد.

ومما هو معروف عند أهل الهندسة والرياضيات أن الخط المستقيم هو أقرب طريق يوصل الإنسان إلى نقطة النهاية لأنه ممتد، يستطيع الإنسان أن ينطلق فيه ويسرع ويسابق، بينما إذا سلك طريقاً معوجاً سيميل بميلانه وينحرف بانحرافه فيتأخر في سيره ويتعرقل في طريقه.

لذلك إذا أراد الله بعبده خيراً وأراد أن يرحم عبده هداه ودلّه وأقامه على هذا الصراط المستقيم الذي قال عنه ابن مسعود رضي الله عنه:" تركَنا رسول الله ﷺ في أوله يعني (بدايته) ونهايته في الجنة"[٢].

❖ ثم تأمل الحديث الآخر عن الصراط والذي يقول عنه شيخ الإسلام رحمه الله "هذا حديثٌ عظيمٌ من عرفه انتفع به انتفاعاً كبيراً وأغناه عن علومٍ كثيرة"[٣].

---

[١] رواه أحمد في المسند

[٢]، [٣] نقلاً عن درس طريق الهداية للدكتور عبد الرزاق البدر

❖روى الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن النواس ابن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قالُ: "**إن الله ضربَ مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط أبوابٌ، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاةٌ، وفي أول الصراط منادٍ ينادي: يا عباد الله! ادخلوا الصراط ولا تَعُوجُوا، ومن جوف الصراط- وفي لفظ-: ومن فوق الصراط منادٍ ينادي يا عبد الله! لا تفتح الباب فإنك إن فتحتهُ تلِجه،** ثم بيّن ذلك **فقال: أما الصراط فهو الإسلام، وأما السوران فحدود الله، وأما الأبواب التي عليها ستورٌ مرخاةٌ فمحارم الله، وأما المنادي الذي ينادي من أول الصراط فكتاب الله، وأما المنادي الذي ينادي من جوف الصراط أو من فوق الصراط فواعظُ الله في قلب كل مسلم**"[١].

شرح الحديث والشاهد الذي نريده:

○**(ضرب الله مثلاً صِراطاً مستقيماً وعلى جنبَتَي الصراط سُوران):** طريق مستقيم وعلى جانبيه من هنا ومن هنا سوران.

○**(فيهما أبوابٌ مفتحة وعلى الأبواب ستورٌ مُرخاه):** هذه الأبواب مفتوحة ليس علها مغاليق ولا مفاتيح ولا أقفال. ليس عليها إلا ستورٌ مرخاةٌ فقط، مجرد ستائر!! فأي إنسان يقترب منها يستطيع أن يسحب هذه الستائر ويشدّها ومن ثمّ سيجد نفسه واقفاً على الباب بدون أي تعب أو جهد أو مشقة.

ما هي هذه الأبواب؟

إنها أبواب الحرام وأبواب الشر، وأبواب الفتن، كما فسرها رسول الله ﷺ في الحديث وقال: "**والأبواب المفتحة محارم الله**".

وتأمل كم هي كثيرة ومتعددة ومنتشرة عن يمين الماشي وشماله، وتأمل أيضاً كيف أن الدخول لها سهل ميسر بل وعلى كل باب منها داعٍ يدعو.

وهؤلاء هم دعاة الفساد ودعاة الضلال والباطل والغواية، وقد حذر منهم رسول الله ﷺ.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: "**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسألُهُ عن الشر مخافة أن يدركني، فقلتُ: يا رسول الله إنا كنا في جاهليةٍ وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلتُ: وهل بعد ذلك الشر من خيرٍ؟ قال: نعم وفين دخن. قلتُ: وما دخنُهُ؟ قال: قومٌ يهدون بغير هدْيي تعرف منهم وتُنكر، فقلتُ: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاةٌ على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلتُ: يا رسول الله صِفهم لنا، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلتُ: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم**

---

[١] المسند (١٧٦٣٤) وأخرجه الحاكم (١/١٤٤) وقال: "صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

جماعة المسلمين وإمامهم، قلتُ: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلّها، ولو أن تعضّ بأصلِ شجرةٍ حتى يدركك الموتُ وأنت على ذلك"[١].

وحتى ننتفع بحديث النواس بن سمعان سنضرب لهذا الأبواب أمثلة من حياتنا وواقعنا وزماننا تعد من أخطر ما يعيق السائر في سيره إلى الله ومن أكثر الأبواب التي يُخدع الناس بدعاتها.

ومن المعلوم أن من استقام على صراط الله في الدنيا (وهو دينه وشريعته) استقام على صراط الآخرة، ومن أسرع هنا أسرع هناك، ومن انحرف وسقط هنا انحرف وسقط هناك.

❖ أول هذه الأبواب بابٌ دعاته هم دعاة البدع والطرق والفِرق.

وهم الذين يدعون الناس إلى بدعهم ويقنعونهم أنها دين وأنها حق وأنها عبادةٌ وقربى، إلى أن أصبح المجتمع يضج بالبدع بكل أنواعها، بدع الأذكار والأوراد والموالد، فألزموا الناس بدعوات وأذكار وأعداد لا دليل عليها، وعلقوا قلوب الناس بها حتى ألِفوها واعتقدوا أنها من الدين!!

وللأسف الشديد أن هذه البدع والمحدثات هي السائدة المنتشرة في بلاد المسلمين وما ابتلينا بهذه البدع إلا بعد انتشار الطرق الصوفية التي أصيبت الأمة بعد الوقوع فيها بالخذلان والهوان وتسلّط أعدائها عليها.

وقد حذر النبي ﷺ من البدع بقوله في حديث العرباض المشهور: " **فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، عُضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدَثات الأمور فإن كل مُحدَثَةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة"**[٢].

- لماذا هذا التحذير؟؟

لأن المبتدع في حقيقة أمره مكذّب لله تعالى، مخوّن لرسوله ﷺ. لذا قال الإمام مالك رحمه الله: [من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول اليوم أكملت لكم دينكم فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً][٣] .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: [اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق][٤].

وحسبك دليلاً على خطورتها ما يلي:

١- أن صاحب البدعة عمله مردود. قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]، ولقوله ﷺ: **"من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"**[٥].

---

[١] صحيح البخاري (٧٠٨٤)- كتاب الفتن (٤٥/١٣)

[٢] صحيح سنن أبي داود (٣٨٥١)

[٣] الاعتصام/ للشاطبي (١/٢)

[٤] سنن الدارمي (٢١١)

[٥] صحيح مسلم (١٧١٨)

٢- أن التوبة محجوبة عنه ما برح مقيماً على بدعته، لقوله ﷺ: "**إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة**"[1].

٣- أن صاحب البدعة لا يرد الحوض، ولا يحظى بشفاعة الرسول ﷺ كما قال ﷺ: "**أنا فرطَكُم على الحوض، وليُرفَعَنّ رجال منكم ثم ليُختَلَجُنّ دوني: فأقول: يا رب أصحابي؟ فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**"[2]. وفي رواية لمسلم: "**إنك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن بدّل بعدي**"[3].

٤- أن صاحب البدعة يحمل إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

ولقوله ﷺ: "**ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**"[4].

٥- أن صاحب كل بدعة ملعون لقوله ﷺ: " **من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**"[5].

٦- أن صاحب كل بدعة لا يزداد من الله إلا بعداً، ويشهد لهذا ما أشار إليه حديث الخوارج: "**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**"[6].

❖ الباب الثاني: دعاته هم دعاة السحر والدجل والشعوذة وبائعي الوهم.

وهؤلاء يزعمون قدرتهم على علاج كل مرض، وحل كل مشكلة، وكشف كل مخبوء، وسعادة كل شقي!! ويجذبون الناس إليهم ويسلبون عقولهم. وانظر ما ظهر على الساحة اليوم ما يسمى بالاستشفاء (العلاج بالطاقة، والعلاج بالأحجار الكريمة والكريستال والبلورات، العلاج بالألوان والرائحة، واليوغا، والعلاج بالأشكال الهندسية، وبرامج المايكروبيوتيك والأساور المعدنية ....).

ولقلة الدين وضعف الإيمان، وقلة العلم الشرعي عند الناس ونسيانهم لمسلّمات وثوابت في العقيدة صدقوا هؤلاء الدعاة واتبعوهم ولم يعرفوا حقيقة هذه البرامج وهذه العلاجات وأنها ما هي إلا فكر وافد من عقائد كفرية وثنية قادمة من الهند والصين واليابان ومرتبطة بمعتقداتهم ودياناتهم البوذية والهندوسية والطاوية المنتشرة عندهم، فوقع أهل التوحيد في الشرك وهم لا يشعرون.. وتنازلوا عن توحيدهم وهم لا يعلمون[7].

---

[1] السلسلة الصحيحة (١٦٢٠)

[2] صحيح البخاري (٦٢٠٥)

[3] صحيح مسلم (٢٢٩١)

[4] صحيح مسلم (١٠١٧)

[5] صحيح مسلم (١٣٧٠)

[6] صحيح البخاري (٦٥٣٤)

[7] راجع كتاب الوثنية في ثوبها الجديد- د/ نجاح ظهار، وموقع الفكر العقدي الوافد- د/فوز الكردي

❖ الباب الثالث: دعاته هم دعاة الرذيلة الذين يدعون للعري والهبوط والانحدار والفساد بكل صوره.

ويدعون لهذا الفساد عبر الإعلام والقنوات والمحطات والانترنت والشبكات. يريدونها بؤرة نار تشتعل في كل بيت مسلم، بل في قلب كل شاب وفتاة مسلمة.

صعد النبي ﷺ على أُطم من آطام المدينة – الأُطم: المكان المرتفع أو الحصن...– ثم قال: "**هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**"[١].

يخبر رسول الله صحابته عن زمان سيأتي تكثر فيه الفتن وتعم وتنتشر حتى تصيب الكل وتدخل للبيوت ولن ينجو منها أحد!! وإن شئت فاربط هذا الوصف بفتنة الفضائيات والإعلام والاتصالات في هذا الزمان وانظر كيف تسللت إلى بيوتنا وقلوبنا وعقولنا ومشاعرنا بل وصلت حتى إلى فرشُنا وأماكن نومنا!!

مجتمعنا الذي نشأ على الفضيلة والحشمة والستر والأدب يتحول الآن تحولاً مروعاً سريعاً إلى الإنحدار، إنه تحول ديني اجتماعي أخلاقي سلوكي مخيف. فتنٌ وشهوات مستعرة تُعرض علينا وعلى شبابنا وفتياتنا على مدار الأربع والعشرين ساعة في هذه الأجهزة،، فما الذي نتوقعه أن يكون حالنا وحال بيوتنا؟؟

نحن فضلاً عن الفسق والفجور والمجاهرة والضياع الذي حصل في بيوتنا وفقدان الإحساس بالمنكرات، فقدنا أيضاً السعادة!! وحلَّ محلها الشعور بالشقاء والقلق والكآبة والأمراض النفسية والأحزان والإحساس بالرغبة في الهروب من البيت، بل الرغبة في الانتحار!!"[٢].

ولم كل هذا؟؟ الجواب لأن الله عز وجل يقول ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:١٢٤]. السعادة لن تحصّل إلا إذا كان هناك صلةً وحبلاً ممدوداً مع الله عز وجل أما إذا قطعنا هذه الصلة وهذا الحبل وأصبحنا صبحاً مساءً ونحن على اتصال بهذه الأجهزة وهذه القنوات، فمن الطبيعي جداً أن نفقد السعادة وأن يحل مكانها الشقاء.

❖ الباب الرابع: دعاته هم رفقاء السوء.

الذين شبههم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله "**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحاملُ المسك: إما أن يُحذيَك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخُ الكير: إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة**"[٣].

---

[١] شرح النووي- صحيح مسلم (٢١٦/١٨)

[٢] للعديد من الحالات التي وقفت عليها بنفسي لشابات يحاولن الانتحار

[٣] البخاري (٥٥٣٤) ومسلم (٢٧٢٨)

مثّل رفيق السوء بنافخ الكير وهو الحداد الذي ينفخ في النار حتى يطرق الحديد. إذا جلست عنده إما أن تطير منه شرارة عليك فتحرقك وتؤذيك أو تحرق ملابسك وإما أن تخرج من عنده وقد علقت الرائحة الكريهة النتنة بك وبثيابك.

صاحب السوء لا بد أن يؤثر على صاحبه، وكذب من قال وزعم أنه لا يتأثر بجلسائه مهما كان حالهم وأنه مسؤول عن نفسه وتصرفاته وهم أحرارٌ في تصرفاتهم ولن يحذو حذوهم. هذا غير صحيح، فالناس جُبِلوا أنهم كأسراب القطا يقلّد بعضهم بعضاً والصاحب ساحب، والطباع سراقة، وكم من شاب سليم الطوية ذهب بنية طيبة إلى أصحابه ورفقته فوقع بين فكيهم فضاعَ معهم!!

وقد يكون رفيق السوء هو الزوج الغير صالح أو الزوجة الغير صالحة، فكل واحدٍ منهما كثيراً ما يفسد صاحبه!! وكم من امرأة صالحة خيّرة تقية تزوجت من رجل لا يخاف الله مضيعاً لفرائضه ودينه فضيعها معه، وأسقطها معه، وانقلبت رأساً على عقب وكأنها لم تكن تلك المرأة الصالحة!! أضاعت صلاتها وحجابها وسترها وأدبها وعفتها، أضاعت كل شيء!!

فعلى المرء أن ينتبه لصحبته ورفقته فالمرء على دين خليله، ومن طاب لقاحه طابت ثمرته.

❖ الباب الخامس: دعاته هم دعاة الدنيا.

الذين يزينونها ويزخرفونها ويشدون الناس ليحصّلوا أكبر قسط منها، فهرعَ الناس للدنيا الغني والفقير منهم، حتى الفقير الذي لا يجد ما يُكمل به بقية الشهر كنفقة لأولاده وأهله فُتِن بالدنيا، وشدت مشاعره، وسُلبت أحاسيسه وعواطفه.

إنها الدنيا التي ضحكت للكل كضحكة الذئب، من حصّلها انغمس فيها ولن يشبع منها، ومن لم يحصّلها فهو مفتونٌ بالجري والسعي ورائها.

والنتيجة؟؟ مرضت القلوب بحب الدنيا، وأثقلها المرض، وإن أردت أن ترى علامته الكبرى- أقصد علامة هذا المرض- فانظر لتساهل الناس في شعائر الدين وخاصةً الصلاة، كم نسبة الذين يصلون والذين لا يصلون من المسلمين؟؟ الأكثرية لا يصلون!! وهذه كارثة.

بيوتنا، أسواقنا، مدارسنا، جامعاتنا، مستشفياتنا، شوراعنا، أرصفتنا امتلأت بتاركي الصلاة!! فنُزعت بركات البيوت، ونُزع الكثير من طمأنينتها ورفقها وسكينتها، هذه المعصية لها أثر كبير على البيوت، وكما تعلم أحياناً أثر المعصية لا يقع فقط على صاحب المعصية التي ارتكبها بل قد يعم. وهذه المعصية ليست معصية عادية أو من صغائر الذنوب بل هي كفر.

قال ﷺ: "**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**"[١]. وقال أيضاً: "**ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة**"[٢]. فمعصيةٌ هذا وصفها أيُّ بركةٍ ستُبقى في البيوت وأهلها؟؟؟

❖ الباب السادس: باب دعاته هم دعاة العلمنة والنفاق.

والتي من أبرز مظاهرها رفض دين الله، رفض الشريعة، رفض أحكام الله وحدود الله، يريدونها حرية مطلقة بلا قيود. وكأنهم يريدون الفساد أمراً واقعاً ولا بد أن نرضى به، ونسلّم به تحت اسم الحرية.

وجعلوا همهم الأكبر المرأة، وحرية المرأة، وحقوق المرأة، وعمل المرأة، وابتعاث المرأة، وقيادة المرأة، ومشاركة المرأة في الألمبياد وفي السياسة وفي الشورى!!

وما هي إلا خطة ممنهجة مدروسة محكمة لإفساد المرأة، وضياع المرأة وإخراج المرأة من بيتها وأسرتها، فإذا ضاعت المرأة ضاع المجتمع كله وهذا هو ما يريدونه حتى وإن ادّعوا الإصلاح فما هم إلا كما قال الله عنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١].

النفاق والمنافقون خطرهم أكبر حتى من الكفار أنفسهم، فالله عز وجل حذر منهم وقال من فوق سبع سموات ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

فإياك أن تنخدع بهم، وبعباراتهم المنمقة ومقالاتهم البراقة وأهدافهم الزائفة فما هو إلا كلامٌ يدسون السم بداخله، وما هو إلا باب شر يروجون إليه فتحوه على أنفسهم وعلى غيرهم أعاذنا الله منهم.

وعموماً الأبواب كثيرة، ودُعاتها كُثر، والمؤمن تكفيه الإشارة. والمقصود أن أنبهك بأنك إن تركت المشي على الصراط المستقيم الواضح وانحرفت يميناً أو شمالاً، واغتررت بدعاة الضلال ودعواتهم وأفكارهم، وتساهلت وشددت الستار ووقفت على أحد هذه الأبواب فاعلم يقيناً أنكَ فتحت على نفسك باباً من أبواب الغواية والفساد والباطل والضلال، وكما يُقال [في لحظة من التفريط يكون الإنزلاق].

إذا فرّطت وتساهلت فربما تنزلق قدمك، والنفس من طبيعتها أنها إذا دخلت وولجت ووقعت في الحرام قد لا تستطيع أن ترجع عنه، وقد لا تستطيع أن تغلق بابه مرة ثانية، لماذا؟؟

لأمرين: إما لأن عزم القلب قد انفسخ، فضعُف القلب وسقط ولم يعد قادراً أن يسترد عافيته أو أن يتوب.

وإما لأن القلب قد حصل فيه زيغ، وإذا زاغ القلب أصبح يرى الحق باطلاً والباطل حقاً فيُصرف عن الهداية، ويُصرف عن الحق، ويستمر على الغواية والعياذ بالله.

---

[١] صحيح الترغيب (٣٦٦/١)
[٢] صحيح الترغيب (٣٦٦/١)

فاحرص على الثبات على الصراط فأعظم ما يمنّ الله به عليك أن ترحل من الدنيا وأنت على طريق الهداية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

الذين ثبتوا واستقاموا واستمروا سيُبشرون عند رحيلهم، وعند نزول الموت بهم، يا أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج روحه سريعةً كما تخرج القطرةُ من فيّ السِقاء، يهون عليه الموت وتهون عليه لحظة الخاتمة، ومن آنس الله بطاعته في حياته آنسه الله عند موته، والجزاء من جنس العمل، ومن أحسن مع الله الصنيعة أحسن الله له الجزاء..

وقفات مع الهداية ..

- ورد في صحيح البخاري[١] قصة وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ، لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبيَ وأبو جهل، فقال له رسول الله: قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله. فقالا له: أترغب عن ملةِ عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله، وأنزل الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

لا شك أن هذا موقف عظيم يحتاج إلى تأمل وإلى نظر وإلى استنباط عبر..

· **الفائدة الأولى:** أن رسول الله ﷺ بالرغم من شرفه ومكانته ومنزلته عند ربه إلا أنه لم يستطع هداية عمه!! وهو عمه وأقرب وأحب الناس إليه ومع ذلك لم يستطع هدايته ولم يملك أن يهديه.

وفي هذا درساً في غاية الأهمية أن من ختمَ اللهُ على قلبهِ لا تملكْ أنتَ هدايته.

الهداية ليست بيدك...

.. رسول الله لم يهدي عمه!

.. إبراهيم عليه السلام لم يهدي والده!

.. نوح عليه السلام لم يهدي زوجته بالرغم أنه يعيش معها تحت سقف واحد وعلى فراش واحد وظل يدعو الناس ألف سنة إلا خمسين عاماً ولم يستطع هدايتها، ولم يستطع هداية ابنه وما زال إلى اللحظات الأخيرة وهو يناديه يا بني اركب معنا، فماذا كان جوابه؟ سآوي على جبل يعصمني من الماء ولم يهتدي.

فالهداية من الله، والله أعلمُ بخلقه وأعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، وبمن لا يستحقها فيصرفه عنها.

قال تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل:٩٣].

---

[١] البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤)

⇦ ولا يظن ظان أو يشك شاك أن في هذا ظلماً أو جوراً فكيف أن الله لم يهديهم ولم يكتب لهم الهداية ثم يعذبهم؟؟

نقول: صحيح أن الهداية والإضلال بيد الله عز وجل ولكن الله قدّر للعباد أقدارهم فيها يتعلق بالهداية والضلال لعلمِه السابق بما سيعمله هذا الإنسان وماذا سيختار.

بمعنى أن الله علِمَ بسابق علمه الأزلي الذي علِم به ما كان وما سيكون، علِم أن هذا الإنسان سيختار طريق الهداية فقدّر وكتب له الهداية، وعلِم بسابق علمه أن هذا الإنسان الآخر سيختار طريق الضلال وطريق الشقاء فقدّر وكتب عليه الضلال والشقاء.. ليس الأمر تحكّم وجبر، بل هو قدَرٌ مرتبطٌ بعلم الله ومشيئته وحكمته، والله له الحكمة البالغة يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

ونحن نؤمن بكمال عدل الله وحكمته وعلمه وأن له الصفات الكاملة العليا وأنه لا يظلمُ أحد، وكل من أراد أن يعمِّق إيمانه بمسألة القضاء والقدر فعليه أن يربطها مباشرة بصفات الله وعدله وحكمته وعلمه،،

فالله عز وجل قدوس سلام مُنزَه عن كل ظلم وعن كل عيب وعن كل نقص وآفة، فقد حرّم الظلم على نفسه **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)** فلن يظلم أحداً من خلقه أبداً.

▪ **الفائدة الثانية:** ينبغي للإنسان أن يحمد ربه على نعمة الهداية ويستشعر أن هذه الهداية هي توفيقٌ من الله وعطية منه، وخاصة عندما يرى الناس من حوله وهم في تخبط وضياع وزيغ وحيرة ومعاصي ورذائل وكما قال الله عنهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات:١١]، ويرى أن الله قد هداه وقذف في قلبه الهداية ولم يجعله مع هؤلاء الضالين المنحرفين.

فليحمد الله وليستحضر وهو يردد في كل ركعة من صلاته (اهدنا الصراط المستقيم) أنه يطلب من ربه كل أنواع الهداية.

أنواع الهداية

(١)

هداية في أمر الدين

يا رب اهدني في أمر ديني دلني على الحق وحبّبه إلي وثبتني عليه

(٢)

هداية في الدنيا

يا رب اهدني في أمر دنياي ومعاشي وارزقني الحكمة في كل تصرفاتي وأموري حتى أصل لرضاك

(٣)

هداية لطريق الحق

يا رب اهدني لطريق أهل الحق وكما أنعمت عليهم أنعِم عليّ وتصدّق عليّ في جملة من تصدقت عليهم واجعلني منهم وأن أسلك طريقهم وأكون معهم ولا أفارقهم ولا أزيغ عنهم

(٤)

هداية في القلب

يا رب اهدني أن يبقى قلبي دائماً معلقاً بك لا ينقطع أبداً عن طلب الإعانة منك ولا تخلي بيني وبين نفسي طرفة عين

لذلك كان أعظم وأنفع دعاء يدعو به العبد هو طلب الهداية من الله.

· **الفائدة الثالثة:** لا تغترّ بما عندك من الهداية ولا تظن أن الهداية إذا دخلت قلبك لن تخرج منه!

فكم من أناس ضلوا بعد الهداية..

وكم من أناس زاغوا بعد الإستقامة..

وكم من أناس انتكسوا ورجعوا وانقلبوا رأساً على عقب.... نسأل الله السلامة والعافية

فلا تتكل على صلاحك وإن كنت صالحاً ولا تتكل على استقامتك وإن كنت مستقيماً،، فقد يستقيم الإنسان على الطاعة وعلى الهداية وعلى العبادة سنين من عمره، ثم تأتي لحظة يزيغ قلبه فيُسلَب الهداية!

فليحذر الإنسان غاية الحذر ويظل على حذر وعلى خوف من نفسه ولا يأمنها.

· **الفائدة الرابعة:** يا طالب الهداية احذر كل الحذر من رفقة السوء فهم أكبر صارف يصرفك عن الهداية وعن الطريق المستقيم وانظر كيف أثروا على أبي طالب وهو في اللحظات الأخيرة بالرغم أن رسول الله ﷺ كان يستعطفه من أجل أن ينطق بكلمة (لا إله إلا الله) فأثروا عليه وأوبقواْ آخرته فأصبح من الخالدين في النار بسبب ذلك المجلس الذي جلسه معهم فخرج منه منتكساً ضالاً إلى قبره.

· **الفائدة الخامسة:** الموفق من وفقه الله ومن أكثر ما يستجلب به التوفيق دعاء الله، والله يقول **(يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدِكم).**

وكم من أناس سالوا الله أن يهديهم فبلغهم الله ما يريدون من الهداية وأكثر.

اطلب الهداية وكُن صادقاً فمدار الأمر على الصدق فإذا علم الله صدقك وفقك وأعانك.

اسأل الله أن يهدينا جميعاً، وأن يسلك بنا طريق المهتدين المتقين، ويجنبنا طريق الغاوين الضالين

اللهم إنا نستهديك فاهدِنا..
اللهم إنا نستهديك فاهدِنا..
اللهم إنا نستهديك فاهدِنا..

اللقـــاء الثاني

اللقاء الثاني

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) ﴾.

آياتنا اليوم في هذا المجلس تحدثت عن قصة موسى عليه السلام الذي أرسله الله بنفس الدعوة وبنفس الهدف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وقد أيّده الله بتسع آيات معجزات [العصا، اليد، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، السنين، نقص من الثمرات].

كل هذه الآيات والمعجزات من أجل أن يبصرها الناس ويعلموا أنه رسول من عند الله ولا يقول إلا الحق فيؤمنوا ويهتدوا.

* ثم قال تعالى ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥]... ما هي أيام الله؟ هل هي أيامنا العادية؟ السبت والأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء؟ الجواب: لا.

وإنما المقصود بأيام الله هي وقائع الله في الأمم، يعني أيام نِعمه وأيام نِقمه.

لله في خلقه أيام: منهم من انتقم الله منه كثمود وعاد وقوم لوط وأصحاب الرس ومدين... فهذه أيام الله ووقائعة فيمن عصاه وكذبه.

ومنهم من أنعمَ الله عليه مثل ما نجى نوح والذين آمنوا معه في السفينة، ونجى الله لوط وابنتيه، ونجى بني إسرائيل من فرعون وجنوده، وأنعم عليهم بإهلاك فرعون، وأظلهم بالغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى.

فهذه أيام الله ووقائعه فيمن أطاعه.

- لماذا أمر الله موسى أن يذكّر بني إسرائيل بأيّام الله؟

من أجل أن يستبصروا ويعتبروا ويتعظوا مما جرى للأمم السابقة.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [ابراهيم:٥].

- ما علاقة الصبر والشكر بالانتفاع بآيات الله؟

يمكن أن يُقال والله أعلم أن الصبر والشكر من أفعال أهل العقول ولا يمكن للإنسان أن يكون من أولي الألباب وأهل العقول إلا إذا كان صبّاراً شكوراً. وانظر لم يقل الله صابراً شاكراً، وإنما قال صبّاراً شكوراً.

صبّاراً: وهو كثير الصبر. يصبر ويصبر ويصبر، لا يتزعزع ولا ينهار ولا تطيش قرارته، بل يظل قوياً ثابتاً متماسكاً ويرجو بصبره ما عند الله وهو يعلم يقيناً أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى.

شكوراً: وهو كثير الشكر. لا تُطغيه النعمة ولا تُلهيه ولا تُشغله فيتمتع بها ويتلذذ كما تتمتع البهائم. وإنما هو يعرف قدر النعمة، وينسبها إلى مُنعمها، ويقوم بشكرها.

فمن كان هذا وصفه –صبّاراً شكوراً– كان من أولي الألباب وكان من أهل العقول الذين ينتفعون بآيات الله[1].

وقفة تدبرية مع السنن الإلهية[2].

أيام الله هي كما ذكرنا وقائعه (أيام نِعمه وأيام نِقمه)، وهذه الأيام مرتبطة بالسنن، والله له سننٌ في خلقه لا تتبدل ولا تتغير طال الزمان أم قصُر، هي سننٌ شاملة لكل البشر، تقع على الأفراد، وتقع على الجماعات وتقع على الأمم.

هذه السنن ثابتة حتى لو تبدل الناس أو تبدل الزمان ستبقى سنن الله ثابتة لا تتبدل. وكل ما كان الإنسان أكثر معرفة بالسنن فإنه سيعيش على بصيرة، يعيش في الدنيا وهو يعرف كيف يقرأ أفعال الله فيما نزل من الأقدار سواء نزلت عليه أو على غيره.

أيضاً معرفة السنن يعتبر بوابة لزيادة الإيمان، ومن الروافد التي تغذي القلب بالإيمان فهو يفتح للإنسان بوابة التفاؤل وحُسن الظن بالله والثقة بوعد الله. ومن جهة أخرى يوقع في القلب تعظيم الله وإجلال الله والخوف من بطش الله وانتقامه، والخوف والتعظيم وحُسن الظن بالله والتوكل عليه والثقة بوعده، كلها عبوديات قلبية من شأنها زيادة الإيمان وترسيخه في القلب ومن هنا جاءت أهمية دراسة السنن.

---

[1] من دروس الدكتور خالد السبت- بتصرف.

[2] الدروس العلمية للدكتور حسن بن حميد على موقع طريق الإسلام

ما هو تعريف السنن؟

هي النظام الإلهي الذي يحكم تصرفات البشر، يعني هي القوانين التي تضبط حياة البشر.

كما يضبط البشر مصنوعاتهم ومخترعاتهم بقوانين ودفاتر وكتالوجات يكتبونها توضح استخدام منتجاتهم... ولله المثل الأعلى فهذه السنن الإلهية تضبط تصرفات البشر.

- السنن باللفظ الصريح ذُكِرت في القرآن اثنتي عشرة مرة.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

وفي سورة الإسراء ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٦-٧٧].

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٢-٢٣].

أولاً: من أول هذه السنن موضوع الجزاءات.

الجزاء كلمة تشمل العقوبة والثواب. والمتتبّع لهذه السنة الإلهية في القرآن يجد أن الجزاء بالنسبة للأمم كجماعات لا بد أن يقع في الدنيا، لا بد من مجازاة دنيوية عاجلة في الدنيا، مثل ما حصل بالأقوام السابقة.

لا بد من نصرة الله لأوليائه وعقوبة الله لأعدائه وإهلاكهم والانتقام منهم، فلن تفلت أمة من جزاءها الدنيوي ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨].

فما من أمة طاغية متسلطة على أولياء الله وعلى عباد الله إلا وتنال عقوبتها في الدنيا. وفي المقابل ما من أمة ومجتمع صالحٍ محافظ على دين الله وشريعة الله، يقيم حدود الله إلاّ ومكّن لهم في الأرض ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

- أما بالنسبة للأفراد من البشر قد يُحاسَبون في الدنيا ويلقون جزاءهم مثل ما عاقب الله فرعون فأغرقه، وعاقب قارون فخسف به وبداره الأرض، وعاقب النمرود فسلّط عليه بعوضة كانت سبباً في موته.

وقد يؤخر الله جزاؤهم للآخرة إما لزيادة الثواب أو لزيادة العقاب.

وفي هذا رسالة لكل من ظُلِم، والمظلومون كُثُر، أن من سنن الله في خلقه أن البشر كأفراد ليس شرطاً أن يلقون جزاؤهم في الدنيا فالدنيا ليست داراً لاستيفاء الحقوق، ليست داراً للجزاء. إنما الآخرة هي دار الجزاء، وكل مظلوم سيُنصَف فيها.

اطمئن أيها المظلوم فإن حقك لن يضيع، وهنيئاً لك إن كان الذي سيُنصفُك جبّار السموات والارض وليس أحداً من البشر.

ثانياً: متى ينزل هذا الجزاء الدنيوي على الأمم؟

هذا هو الذي يستعجله الناس، حتى رسل الله وهم رُسُله يمر عليهم أوقاتاً يسألون (متى نصر الله)؟؟

- موسى عليه السلام وبعد صراع طويل مع فرعون وجنوده دعا الله عليهم ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [يونس:٨٨]، يستعجل العقوبة لفرعون وقومه، والله يقول له بحكمته وعدله ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ [يونس:٨٩]. وعدهم الله باستجابة دعاؤه ولكن متى يكون؟ هذا يرجع لعلم الله وحكمته وتقديره.

- يونس عليه السلام خرج من قومه غضباناً وظن أن العقوبة ستأتيهم قريباً ونسي أن الله يختار لدينه ما لا يعلمه حتى نبيه، فعاقب الله يونس عليه السلام على هذا الاستعجال ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات:١٤٢].

إذاً الجزاء واقع واقع بالأمم، جزاء الله بإهلاك الطغاة والجبابرة والظلمة وأعداء الدين، والتمكين والنصرة للمؤمنين ورفع الظلم عنهم حاصلٌ لا محالة.

نعم قد يتأخر الجزاء ونضيق ذرعاً ويشقُ علينا الأمر ويدخلنا شيء من اليأس وخاصةً ونحن نرى المذابح والدماء والقتلى والأسرى واغتصاب الحرائر وبكاء الأطفال والنساء فنستبطئ نصر الله ونتساءل متى ينصر الله عباده؟؟ ولماذا لا يستجيب الله دعاء المستضعفين والموحدين والمكروبين؟؟

كل هذه أسئلة تمر علينا ولكن إذا آمنا وتيقنا أن من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير أن الجزاء حاصل لا محالة وأن الله أخره لعلمه واختياره وحكمته وأن اختيار الله هو الأمثل والأحكم والأصوب وأن الله أعلمُ وأحكمُ في اختيار توقيته فسوف نطمئن ونثق ونتفاءل ونُحسن الظن بربنا وهذا باب من أبواب اليقين يفتحه الله على من يشاء من عباده ويغلقه عمن يشاء. فاللهم املأ قلوبنا بصدق اليقين بك وقوة التوكل عليك...

ثالثاً: إذا أنزل الله الجزاء الجماعي سواء كان خيرا أو شرا فإن الفرد يدخل فيه حتى وإن كان صالحاً حتى وإن كان بريئاً حتى وإن لم يكن سبباً مباشراً في هذه العقوبة أو الجزاء ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥].

هذا الخوف وهذا الجوع إذا نزل ينزل على أهل المدن في مدنهم وعلى أهل الأرياف في أريافهم وحتى أهل الخيام في خيامهم، بل حتى البهائم والجمادات إذا أنزَل الله عقوبة جماعية يشملهم ويؤخذون مع الجماعة، ثم يعوض الله من لا ذنب لهم في الدنيا والآخرة.

وأيضاً إذا أنزل الله خيراً وبركة على أمة من الأمم أو على بلد من البلاد، عمَّ هذا الخير الكل حتى وإن كان فيهم إنساناً مقصراً أومفرطاً وعاصياً، فإنه ينْعمَ بما يُنْعمُ الله به على الجماعة.

رابعاً: الله لا يخلق شراً محضاً، وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه "**لبيك وسعديك والخير كله بيديك والشر ليس إليك**"[1].

إذاً ما تفسير ما يصيب الناس من المجاعات والفيضانات والزلازل والبراكين والحروب والأعاصير وغيرها من الكوارث والنكبات أليست هذه كلها شرور ومصائب؟؟

الجواب: أن من فهم سنن الله عرف أنها شرٌ لأقوام وخيرٌ لأقوام.

- هي عقوبة وشر لأهل الفساد والعُصاة والمجاهرين فإن تابوا فالحمد لله فمن تاب تاب الله عليه، وإن بقوا على حالهم فقد أقام الله الحجة عليهم وأمرهم إلى الله.

- وهي ابتلاء يرفع الله به الدرجات ويكفر به السيئات ويصلح به القلوب ويزيد به الإيمان لأهل الخير والصلاح.

- كم وكم من أناس فقدوا آباءهم وأمهاتهم وأزواجهم وأبناءهم في هذه الكوارث وصبروا فنالوا أجر الصابرين وأخذوا يغرفون من الأجور غرفاً.

جاء في الحديث أن من فقد عينيه فصبر واحتسب يقول الله عز وجل **(لم أرض له جزاء دون الجنة)**[2]، فكيف بمن فقدوا أعضاءهم وأطرافهم وأصبحوا مقعدين؟!

- يقول ﷺ: " **إن الله ليبتلي عبده بالسقم حتى يكفَر عنه كل ذنب**"[3]. فانظر كم من المصابين والجرحى والمتألمين الذين لا يجدون علاجاً ولا دواءً ولا غطاءً ولا مأوى بل أصبحوا لاجيئن يسكنون الخيام!! هؤلاء يتقلبون في دائرة من التطهير والتمحيص والتكفير.

---

[1] أخرجه مسلم

[2] صحيح الترغيب (٣٤٦/٣)

[3] صحيح الترغيب (٣٤٢)

يقول ﷺ: "إنما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الوعْكُ والحُمّى كحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها"[١] .وكل أفعال الله دائرة بين العلم والحكمة والرحمة والعدل ولا يظلم ربك أحداً...

خامساً: ما سبب نزول العقوبات الجماعية؟

١- إذا ترك الناس إقامة الحدود التي أمر الله بها فتركوا إقامة حد الزنا أو حد الخمر أوحد السرقة أوجباية الزكاة وتساهلوا فيها استحالت إلى عقوبات قدرية كونية عامة تصيب الكل.

٢- إذا ظهر الفساد وجاهر الناس بالمعاصي وتفشت بين الناس ، وتجرأ الناس على محارم الله ولم ينكرها عليهم المصلحون والمؤمنون حلت بهم العقوبات العامة.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وقال ﷺ: **"لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يُعلِنوا بها إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم"**[٢]، وهذه عقوبة عامة أن يبتليهم الله بالأمراض والأوبئة والأمراض الفتاكة.

وجاء في الحديث "**ما طفّف قومٌ كيلاً ولا بخسوا ميزاناً إلا منعهم الله عز وجل القطر، ولا ظهر في قومٍ الزنا إلا ظهَرَ فيهم الموت، ولا ظهَرَ في قومٍ عملُ قومِ لوطٍ إلا ظهَرَ فيهم الخسف، وما ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم تُرفع أعمالهم ولم يُسمع دعاؤهم**"[٣].

○ تأمل في كشف العورات واللباس الغير ساتر الذي ابتُلي به نساء هذا الزمان حتى إذا ذهبنا إلى مناسبة من المناسبات الاجتماعية وكأننا دخلنا إلى (صالة للعريّ)!! ولا يخفاك أن هذه من أبرز وأوضح صور المجاهرة..

○ الغناء والموسيقى والإيقاعات المؤثرات التي عمت وطمت وفشت بين شبابنا وفتياتنا وفي إعلامنا ومجالسنا وأفراحنا، هذه كلها من صور المجاهرة.

والنبي ﷺ يقول: "**ليشربنّ ناسٌ من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم المعازف والمغنيّات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير**"[٤].

○ الربا، الخمر، العقوق، القطيعة، الغش، التزوير، الكذب، الشذوذ، وغيرها من المعاصي والفواحش والمنكرات التي ظهرت وجاهر بها الناس بكل جرأة واستخفاف.

---

[١] رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد- صحيح الترغيب (٣٤٣/٣)

[٢] انظر فتح الباري (١٩٣/١٠)

[٣] رواه ابن أبي الدنيا. انظر كتاب الترغيب- أهل المعاصي صـ ٧٢

[٤] صحيح سنن ابن ماجه (٣٧١/٢)

من فهم السنن الإلهية عرف أننا في خطر، وأن الله عز وجل ما زال يرسل الآيات تلو الآيات لعلنا أن نستيقظ لعلنا أن نرجع لعلنا أن نتوب، الغبار نذير من النذر، الزلازل نذير، البراكين والحرائق والأعاصير والفيضانات والسيول كل هذه آيات ونذُر وزواجر ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩]..

هذه الآيات هي تنبيه وتذكير لنا جميعاً لنقوم بواجب الإصلاح والتناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]. لوأحيينا هذه الشعيرة لرفع الله عنا البلاء وأزال عنا العقوبات وحلّت علينا الرحمات، أما إذا سكتنا على المنكرات ورضينا بها ولم نرفع لها رأساً فلنعلم أن عذاب الله قد اقترب منا بل وطوّقنا، (وما هي من الظالمين ببعيد). وكما قيل: إذا ساد الصمت كثُر الخَبَث.

فهنيئاً لكل من منَّ الله عليهم وفهموا سنن الله في خلقه ووقفوا محذّرين للناس، مُصلحين، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

- يقول عنهم ابن الجوزي رحمه الله:

"رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، سرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، هممهم عند الثريا بل أعلى، الناسُ في غفلاتهم وهم في صلواتهم، حتى بقاع الأرض تحبهم"[١].

نسأل الله أن يجعلنا منهم

وقال عليه الصلاة والسلام: "**والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهّن عن المنكر أو ليوشِكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه**"[٢].

---

[١] خواطر ابن الجوزي- بتصرف.

[٢] أخرجه الترمذي (٤٦٨/٤) وحسنه الألباني

اليوم الآخرُ في سورة إبراهيم.

الآيات (١٥ إلى ١٧): ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾.

الآيات (٢١ إلى ٢٢): ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾.

الآيات (٤٧ إلى ٥٢): ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾.

السور المكية بالذات أكثرت من ذكر اليوم الآخر ومشاهده وأحواله وما سيجري فيه من البعث والحشر والعرض والحساب والوزن والصراط والجنة والنار وكأنها تريد أن تغرس هذا اليوم في القلوب غرساً، وأن تعلِّق القلوب بالآخرة وتُرحِّل القلوب للآخرة فتظل الآخرة تلاحقُك، فلا تغفل عنها ولا تنساها وهذا من أكثر ما ينتفع به الإنسان أن تدخل الآخرة في قلبه حتى لا يتوه في أودية الدنيا ولا يظل مشدوداً لها فيطول أمله وكأنه لن يفارقها.

والنبي ﷺ حذرنا من طول الأمل.

عن عبد الله رضي الله عنه قال: خطَّ النبي ﷺ خطاً مربعاً وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال: "**هذا الإنسان، وهذا أجله محيطٌ به أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارجٌ أمله، وهذه الخُططُ الصغارُ الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشَهُ هذا**"[١].

ومعنى الحديث أنه يا ابن آدم لا تغترَّ بأملك واعلمْ أن أجلُك أسبقُ إليكَ من أملك، ومن طال أمله كَسُلَ عن الطاعة، وسوّف بالتوبة، ورغِبَ في الدنيا ونسي الآخرة لذلك حذّر النبي ﷺ من طول الأمل، ومن رحمه الله ذكّره بالآخرة وأقامها في قلبه.

---

[١] صحيح البخاري (٦٤١٧)- كتاب الرقاق باب في الأمل وطوله- أنظر فتح الباري (٢٨٣/١١)

وقفة تدبرية مع الآيات.

- نبدأ من قول الله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

إذا بُعِث الناس من قبورهم سيجدون أن الأرض قد تبدلت وتغيرت فليست بالأرض الي يعرفون. ويصف النبي ﷺ هذا التبديل بقوله: "**يُحشرُ الناس بأرضٍ عفراءَ كقُرصةِ النقي**"[١].

أي أنهم يحشرون على أرض بيضاء كالفضة الناصعة لم يُسفك فيها دم ولم تُرتكَب عليها خطيئة وليس فيها مَعْلَم. تُبسط كما يُبسط الجلد ليس عليها بناء ولا جبال ولا أشجار ولا بحار، وليس فيها انخفاض ولا ارتفاع، قاعاً صفصفاً مستوية تماماً.

- يُحشر على هذه الأرض جميع الخلائق من لدن آدم عليه السلام إلى آخر رجل تقوم عليه القيامة (وبرزوا لله جميعاً)، يُنطلق بهم من قبورهم مهطعين مسرعين خلف الداعي ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦]. ينطلقون خلفه وهم صامتون مستسلمون لا ينطقون ولا يتلفتون، يعلوهم صمتٌ رهيب وخوفٌ مُزلزِل أبصارهم شاخصة لا تُغمَض أعينهم من هول ما يرون، وأفئدتهم هواء، تكاد أن تنخلع من كثرة الفزع والرعب والخوف.
- سيُحشر الناس في أرض المحشر على ثلاث هيئات ذكرها النبي ﷺ: "**يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفاً مشاة يمشون على أقدامهم، وصنفاً ركباناً وصنفاً على وجوههم، قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم، فقال: إن الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشيهم في الآخرة على وجوههم**"[٢].

أهل التقوى والإيمان، أهل التوحيد والسنة هم الذين يحشرون ركباناً تقرّب لهم الركائب والنجائب والنوق التي رواحلها من ذهب. ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم:٨٥].

أما المجرمون يساقون سوقاً شديداً، تزرقّ أعينهم، تكاد أعناقهم تتقطع من العطش ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢]، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦].

- إذا وصلت الخلائق لأرض المحشر ازداد الكرب والهم والغم عليهم لأنهم سيقفون يوماً طويلاً مقداره خمسين ألف سنة، وزحامه شديد يكاد يخنق الأنفاس، الخلائق تتدافع، الشمس تقترب، الناس عُراة، العرق يتساقط.

جهنم يؤتى بها وهي نارٌ عظيمةٌ لها سبعون ألف زِمام وعلى كل زمام سبعون الف مَلَك يسحبونها.، ثم يبدأ العرض على الله عز وجل.

---

[١] رواه البخاري ومسلم

[٢] رواه الترمذي بسندٍ حسن

- ينادى على الخلائق في أرض المحشر ليكلمهم الله كما جاء في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم "**ما منكم من أحدٍ إلا وسيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان فينظرُ العبدُ أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدّم وينظرُ أشأمَ منه فلا يرى إلا ما قدّم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**"[1].

- تنادي الملائكة يا فلان اين فلان، فتسمع اسمك ويقرع النداء قلبك ويصفرّ وجهك ويتغير لونك، تقوم أمام كل الخلائق أبصارهم تنظرُ إليك وأنت تمشي في طريقك للوقوف أمام الملك. تتخطى كل الصفوف، صفوف الملائكة، صوف الإنس، صفوف الجن، كل هذه الصفوف تتخطاها لتقف ويكلمك الملَك وتُعطى صحيفتك التي لا تغادر صغيرةً ولا كبيرةً فعلتها سواء أظهرتها أو أخفيتها، علم الناس بها أم لم يعلموا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة:٦].

في هذه اللحظة يتحسر الإنسان على ذنوبه وعلى التفريط وعلى الخلوات، يتحسر على كل احتقار احتقره لمخلوق، يتحسر على كل أذية آذاها لإنسان، يتحسر على كل دمعةٍ أنزلها من أب أو أم، يتحسر على كل تضييع ضيعه وعلى كل صلاة تركها، وعلى كل قطيعة قطعها، ويتحسر على الأيام التي ذهبت وعلى العمر الذي ضاع ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦].

- ثم يُقال لك اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً..

إذا كان الإنسان مؤمناً: يدنيه ربه (عبدي أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟) فيصفرّ وجهه ويفزع ويخاف وقد عُرِضت عليه صغار ذنوبه وخُبِّئ عنه كبارها وهو مشفقٌ من كبارها وما أن ينتهي حتى يُقال له: هذه سيئاتك التي عملتها سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يُعطى كتابه بيمينه.

أما إذا كان مجرماً عاصياً ظالماً: فإنه سيقرأ صحيفته ويرى ذنوبه وأوزاره ويسودّ وجهه ويُكسى سرابيل من قطران – ثياب من نحاس شديد الإشتعال- ويلحقه ما يلحقه من الذل والعار والخزي ويُعطى كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

ثم يُقاد هؤلاء المجرمين مقرّنين بالأصفاد مقيدين بالقيود قُرِنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل يُساقون إلى النار.

- النار مفزعةٌ مخيفة وخَزَنَتها الذين يحرسونها ويتولون تعذيب الناس فيها وصفَهم الله أنهم غِلاظ شِداد، عددهُم تسعة عشر، قائد هؤلاء الخَزنَة اسمه مالك ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

يدخلها خلقٌ كثيرٌ لا يحصيهم إلا الله ولا يعلم عددهم إلا الله، إذا دخلوها تعاظم خلقهم وكبر خلقهم وتضاخم حتى يكون ضرس أحدهم مثل الجبل كما جاء في الحديث "**ضرس الكافر في النار مثل جبل أحد**"[2]، ومسافة ما

---

[1] صحيح ابن ماجه (١٥٠٥)

[2] أحد: جبل امتداده سبع كيلومترات- رواه أحمد ومسلم

بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام. وجهنم تتسع لهذا الخلق وهذه الأعداد، ثم إذا دخلوها أُغلِقت أبوابها عليهم ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨]، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤].

طعامهم الزقوم والضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، أما شرابهم فهو كما جاء في السورة ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٦-١٧].

ماء صديد: الماء والقيح وما يسيل من أهل النار، يتجرّعه ويتغصّصه ويشربه قهراً وقسراً، يحاول أن يبتلع هذه القذارة والمرارة فيتألم ويسري الألم في كل بدنه وكل جوارحه ومفاصله وعروقه.

قال ﷺ: "**إن الحميم ليُصبّ على رؤوسهم، فينفذ الحميمُ حتى يخلصَ إلى جوفه فيسلُتُ ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصّهر، ثم يُعاد كما كان**"[1]، لا هو يموت فيستريح من هذا الألم بل سيبقى يتعذب وله بعد هذا العذاب عذابٌ غليظ مؤلمٌ ينتظره.

نعوذ بالله من النار ... نعوذ بالله من النار ... نعوذ بالله من النار

اللهم إنا خلقٌ من خلقك وإنا ضعفاء أجسادنا لا تقوى على عذابك وأنت الرحمن الرحيم

رحمتك وسعت كل شيء ورحمتك سبقت غضبك

كتبت الرحمة على نفسك فارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء يارحمن الدنيا والآخرة

ارحمنا واعفو عنا واغفر لنا

اللهم إنا نسترحمك فارحمنا ... اللهم إنا نسترحمك فارحمنا ... اللهم إنا نسترحمك فارحمنا

---

[1] رواه الترمذي والبهقي- صحيح الترغيب (٣/٤٧٩)

اللقــاء الثالث

اللقاء الثالث

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾.

وقفة تدبرية مع المثل المضروب في سورة إبراهيم.

الأمثال في كتاب الله لها شأن عظيم، ولها أسرارٌ عظيمة، وضرب الأمثال بمعنى إبرازها. يُقال تُضرب الخيمة أي تُنصب لكي يراها الناس. وكذلك الأمثال تُضرب لكي يعقلها السامعون ويفهمونها.

فالمثل أشبه ما يكون بالوسيلة التعليمية التي تُبرز للدارس من أجل أن يتصور الأمر الذهني بصورة مشاهدة أمامه فترسخ في عقله وذهنه، فيصبح الكلام النظري عبارة عن صورة حسية مشاهدة فيصل المعنى أسرع وأسهل وأوضح للسامع.

لذلك رفع الله شأن الأمثال في القرآن وأمر بالاستماع لها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣]، ويقول عز وجل ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧]. وزكّى من فهم الأمثال تزكية خاصة ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ولا يكفي القارئ مجرد معرفته المعنى العام للمثل، بل لا بد من أن يعيد ويكرر النظر في المثل حتى يستوعبه ويكشف معانيه ويحصّل هداياته ليعظ نفسه به، وهذا لا يُدرك إلا بالتفكر وتكرار النظر.. وبالمثال يتضح المقال.

مثلاً في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

هذا المثل معناه العام أن الله عز وجل شبه اليهود الذين نزلت عليهم التوراة مثل الحمار الذي يحمل كتب العلم على ظهره ولا يدري ما فيها، وقد ذمّهم الله وذم فعلهم وقال بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله.

فما الوعظ الذي حصل للقلب بمجرد أن عرف المعنى العام للمثل؟؟ أترك الإجابة لك قارئي الكريم.

لكن لو أعدنا النظر في المثل وأطلقنا الخيال في تصوّر هذا الحمار وهو يحمل على ظهره أنفس الكتب وأعظم الكتب نفعاً. يحمل التوراة وهي من أعظم الكتب المنزلة من عند الله، بل من شدة عناية الله بالتوراة فإنه كتبها بيده لموسى عليه السلام وبعثه بها إلى بني إسرائيل. لكن ما الذي يستفيده الحمار حتى لو كان يحمل هذه

التوراة على ظهره؟؟ ما هي إلا عبء عليه، ولو كان ينطق ويتكلم لقال ارفعوها عني أتعبتموني وآذيتموني وأثقلتمٍ عليّ!!.

بنوا اسرائيل حفظوا التوراة حفظوا حروفها فقط، لم يفهموها ولم يعملوا بها بل حرفوها وأوّلوها وبدلوها فلم ينتفعوا بها مثل هذا الحمار الذي لم ينتفع!

والعلم متى يكون بركةً على أصحابه؟ إذا هم عملوا به وانتفعوا، أما أن يكون العلم مجرد حفظ وشهادات ودرجات ومناصب فقط، فهذا ليس علماً.

العلم الحقيقي هو العلم الذي يُنتج عبادةً وعملاً وطاعةً وامتثالاً ومحاسبةً للنفس حتى ينتهي بصاحبه أن يحوله إلى شخص آخر، فهو علمٌ مأخوذ من كتابٍ سماوي هدفه تربية الناس وتزكيتهم.

وها هي أم سفيان الثوري تقول لابنها: انظر في هذا العلم الذي تطلب فإن وجدتَ له أثراً في فعلك وقولك وسمتك وإلا فأرِح المسلمين من شرّك!! لأن القضية ليست قضية حفظ بل قضية عمل، وأن يُرى أثر العلم ونوره وبركته على صاحبه. فليتفقّد كل منّا نفسه ليرى أثر علمه عليه، ويسأل نفسه بصدق ماذا عملت بما علمتْ؟؟ وليعد لهذا السؤال جواباً بين يدي ربه...

هذه الهدايات وهذا الوعظ القلبي لا يحصل إلا إذا أعاد القارئ وكرر النظر في المثل حتى يهتدي به، وصدق ربنا (وما يعقلها إلا العالمون).

اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين

- شرح المثل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

هذه البداية فيها استثارة للتعجب.. مثل قوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ وهذه الاستثارة هي لفت لانتباه السامع كي يفهم المثل جيداً فيحصل له التعجب.

إذاً هذه البداية تعطي القارئ دلالة وإشارة انتبه فهذا المثل عظيم.

شبه الله في هذا المثل (كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة). ما هي هذه الكلمة الطيبة؟! هي كلمة الإيمان، كلمة التوحيد كلمة (لا إله إلا الله).

شبهها الله بشجرةٍ طيبة، والشجرةُ لا تكون طيبة إلا إذا كانت شجرةً نافعةً مثمرة، أما إذا كانت الشجرة لا نفع فيها ولا ثمر لها لا تسمى شجرة طيبة.

- **ما هي هذه الشجرة؟**

وضحتها السنة وذلك حين سأل رسول الله ﷺ الصحابة عن شجرةٍ لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال: هي النخلة[١]. إذاً الإيمان مشبه بشجرة مثمرة نافعة لا ينقطع ثمرها وهي النخلة.

النخلة مثل غيرها من الشجر تبدأ صغيرة، فسيلة أو صِنوان يُؤخذ من أمه ويُغرس في الأرض ثم ينمو حتى يصير شجرة، إذاً ضرب الله عز وجل مثلاً للإيمان بكائن حي ينمو.

وكما أن هذا الكائن الحي ينمو شيئاً فشيئاً فهذا الإيمان في القلب ينمو شيئاً فشيئاً.

يبدأ الإيمان في القلب حين ينطق الإنسان بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ينطقها مصدقاً بها محباً لها معتقداً بها فيبدأ الإيمان يدبُ في القلب، تبدأ الحياة فيه، وهذا يقابله غرس الفسيلة في أرض طيبة.

لكن هذه المرحلة لا تكفي بل لا بد من المرحلة الثانية وهي أن هذه الشجرة لن تنمو وتكبر وتقوى إلا إذا غُذيت وسُقيت وتعاهدها صاحبها بالسقي والرعاية. فلو أهملها وقصّر في سقيها لن تنمو ولو سقاها بماء غير طيب لن تنمو، ولو صب في جذعها دواءً مفسداً لا يلائمها لن تنمو بل ستموت.

كذلك شجرة الإيمان التي بدأت تنبت في القلب إذا لم يتعاهدها صاحبها ويسقيها لن تنمو.

كيف تُسقى شجرة الإيمان؟؟

الإيمان ليس له مورداً واحداً فقط وإنما هو مركّبٌ من عدة شُعب وأوصاف. وكلما تعلّم المؤمن هذه الشعب وعمل بها فإنه يترقى ويترقى بإيمانه ويسقي شجرته

والدليل على أن الإيمان مكونٌ من شُعب قول النبي ﷺ: "**الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبة اعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**"[٢].

إذاً أهل الإيمان يتفاوتون في إيمانهم ودرجاتهم ومنازلهم على حسب أخذهم لهذه الشُعب والعمل بها وتكميلها.

- من أخذ بهذه الشعب وجاهد نفسه على إكمالها كان في المرتبة العليا وهم السابقون- المقربون- الصديقون- عباد الرحمن- أهل الغرف، كل هذه مسميات لهم في القرآن. هؤلاء أكلموا شُعب الإيمان وأوصافه وأكملوا العبودية، فأتوا بالفرائض والواجبات وانتهوا عن المحرمات وسارعوا في الخيرات، فما من خير يعلمون أن الله يحبه إلا وجاهدوا أنفسهم عليه.

---

[١] مخرج في الصحيحين من طرق كثيرة

[٢] صحيح مسلم (٣٥)

وهم الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: "**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق لتفاضل ما بينهم، فقالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**"[١].

- الدرجة الثانية وهم (المقتصدون) الذين وقفوا على ما طُلِب منهم من الفرائض والواجبات وانتهوا عن ما حرم الله عليهم، وهم الذين جاءوا بشعب الإيمان الواجبة ولم يزيدوا عليها في الغالب ولم يسارعوا في الخيرات وإن كان عندهم بعض الزيادة في بعض الأحيان إلا أن الغالب عليهم الاكتفاء بما فُرِض عليهم.

ومن أسمائهم التي وردت: الأبرار- أصحاب اليمين- المقتصدون- الصالحون.

- الدرجة الأدنى والأقل وهي درجة (الظالم لنفسه) وهم الذين أخلّوا وفرّطوا ببعض الواجبات وارتكبوا بعض المحرمات وأصروا عليها وماتوا عليها وهم على خطرٍ عظيم.

هذه مراتب أهل الإيمان التي ذكرها الله في سورة فاطر ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢]، ثم قال الله عنهم (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا).

إذاً كلهم سيدخلون الجنة ولكنهم متفاوتون في دخولها:

- فمنهم من يدخل الجنة ابتداءً بلا حساب..
- ومنهم من يدخل الجنة بعد حسابٍ يسير فقط وهو العرض على رب العالمين..
- ومنهم من يدخلها بعد أن يُحبس ما شاء الله أن يُحبس.. (ما يحصل للمؤمنين الذين يُحبسون في القنطرة).
- ومنهم من لا يدخلها إلا بعد أن يمشي على الصراط مدة لا يعلمها إلا الله ويناله من سمومها ونتن ريحها ما يناله ثم ينجو..
- ومنهم من لا يدخلها إلا بعد أن يحبو على الصراط فتخدشه الكلاليب والخطاطيف التي على الصراط، وهي كلاليب حمراء ملتهبة فتخدشهم ثم ينجو كما قال رسول الله ﷺ: "**فمخدوشٌ ناجٍ ومكردسٌ في النار**". يبقى ما شاء الله له أن يبقى في النار ثم يخرج ويُطهّر بماء الحياة ويدخل الجنة.

وكل هذا التفاوت يرجع إلى ماذا؟؟ على حسب تكميل شعب الإيمان علماً وعملاً.

من أكمل الشعب كان إيمانه كاملاً ومن ترك شيئاً فاته كمال الإيمان...

---

[١] رواه مسلم (٢٨٣١) والبخاري (٢٥٦)

ما هي الشعب التي تغذي وتسقي شجرة الإيمان في القلب؟

أورد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (كتاب الإيمان) فصلاً أسماه [باب أمور الإيمان] وأورد تحت هذه الترجمة آيتين:

الآية الأولى في سورة البقرة ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾.

والآية الثانية في سورة المؤمنون ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون].

- ما الذي أراد البخاري أن يوصله للقارئ؟؟

أراد أن يشير أنك إذا جمعت الأوصاف التي وردت في هاتين الآيتين ستعرف شعب الإيمان وموارد الإيمان وصفات المؤمنين الكُمّل وما الذي أوصلهم لهذه المنزلة العالية..

وسنبدأ مدارسة هذه الصفات وسنركز على آية سورة البقرة (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ).

يقول أبو العالية وهو من علماء التابعين وكبارهم: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل.

وقال الثوري رحمه الله عن هذه الآية: جمعت أنواع البر ومن اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله[1].

وأول هذه الموارد التي يُستقَى منها الإيمان هو [أركان الإيمان الستة] وهو الأساس وهو الأصل وهو بمثابة جذور الشجرة الأساسية الضاربة في الأرض.

لما وصف الله عز وجل الشجرة في المثل السابق قال (أصلها ثابت)، والنخلة بالذات من الأشجار القوية الصلبة التي لا تسقط ولا تتزعزع ولا يتحات ورقها وثباتها من ثبات أصلها، جذورها ضاربة وممتدة،وكذلك المؤمن ثابت بقوة العقيدة وقوة التوحيد وما يستلزمه هذا من أعمال وعبوديات قلبية: اليقين، الإنقياد، التسليم، الرضا، الإخلاص، معرفة الله بأسمائه وصفاته وما تثمره هذه المعرفة في قلب المؤمن ومردودها عليه، فثبات

---

[1] التيسير في اختصار ابن كثير- صـ ١٧٧

المؤمن يأتي من قوة توحيده وعقيدته وإيمانه. فكل من أقام شجرته على هذا الأساس وعلى هذا الإيمان القلبي سيضمن ثبات شجرته.

المورد الثاني: أعمال الجوارح وهذا هو معنى قوله تعالى (وفرعها في السماء). فسرها المفسرون أنه العمل المتفرع من هذا الإيمان أي أعمال الجوارح الخارجة من القلب.

وبالطبع هناك ارتباط وثيق جداً بين الإيمان والعمل، وكثيراً ما تأتي الآيات في القرآن الكريم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات). فالعمل جزء من الإيمان وتعريف الإيمان هو: قولٌ باللسان واعتقادٌ بالقلب وعملٌ بالجوارح.. فالعمل جزء من الإيمان وكلما زاد العمل زاد الإيمان.

ومن هذه الأعمال على حسب ترتيبها في الآية:

أ- إنفاق المال وكثرة الصدقات.

وهذا رافد عظيم من الروافد التي تغذي القلب وتسقي شجرة الإيمان فيه.

قال تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقد حكم النبي ﷺ وقال: "**والصدقة برهان**"[1]. برهانٌ على ماذا؟؟

برهان على صدق العبد، وصدق إيمانه، وصدق معرفته بربه، فأكثر الناس صدقاً أكثرهم صدقةً. هذا المنفق المتصدق الباذل في سبيل الله وإن كان عمله عملٌ جارحي إلا أنه مستمدٌ من القلب، فما أنفق إلا وهو على يقين بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن الله له خزائن السموات والأرض وأن خزائنه ملأى، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، وهو على يقين أيضاً بالعِوض والخلف ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ:٣٩]، بل هو على يقين بالمضاعفة، والمضاعفة باب مفتوح يضاعف الله فيه لمن يشاء من عباده والله واسعٌ عليم. ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

إذاً الإنفاق في سبيل الله سقيا مباركة لشجرة الإيمان في قلب المؤمن، فكل ما زاد إنفاقه سُقيت شجرته.

ب- إقامة الصلاة والخشوع فيها.

الإقامة أمرٌ زائدٌ عن مجرد الصلاة، وكل الأوامر التي جاءت في القرآن الكريم كلها جاءت بلفظ (أقيموا الصلاة) وقد امتدح الله المصلين في سورة المؤمنون بقوله ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [المؤمنون:٢].

---

[1] رواه مسلم (١٠٥)

ما معنى إقامة الصلاة؟

إقامة الصلاة: هو إتمامها وإتمام ركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وحضور القلب فيها

نحن على ضوء هذا التعريف إن نظرنا لصلاتنا- نسأل الله أن يعفو عنا- لوجدنا من حالنا عجباً ولوجدنا أننا أصبحنا مؤدين للصلاة فقط ولسنا مقيمين لها بالرغم من كثرة أسباب الخشوع التي هيأها الله لنا، وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان وهو تحويل العبادة إلى مجرد عادة، مجرد روتين، مجرد شيء تربينا عليه منذ الصغر وهذا من أكبر الموانع التي تمنع سُقيا شجرة الإيمان في قلوبنا وعدم وصول المردود الإيماني للقلب.

بعضنا من المرحلة الابتدائية وهو يصلي ومع ذلك ما زلنا نؤذي بعضنا!! ما زلنا نظلم!! مازلنا نلطخ بألسنتنا!! ما زلنا نصرّ على بعض المعاصي!!

ما زلنا نعاني من كثرة وساوس الصدر والتي يشعر الإنسان أن نفسه قد تسلطت عليه، والنفس في أصلها عدو تحمله بين جنبيك ويؤازرها الشيطان بما يلقيه في القلب من الوساوس فيصبح المرء في شتات وتخبط وفي أمرٍ مريج.

وقد يقول قائل: وما علاقة هذا بالصلاة؟؟

الجواب: الله عز وجل في سورة المائدة يقول: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة:١٢]، والمعية تقتضي التسديد والرشد وأن يعيذ الله عز وجل هذا الإنسان من شر نفسه ومن تسلط نفسه عليه ويلهمَه رشده وينزعُ وساوسه من صدره.

إذاً بقدر إقامتك للصلاة وخشوعك فيها بقدر ما تسقي شجرة الإيمان في قلبك ويصفى قلبك ويفرَّغ من كل الوساوس والنزغات.

ج- إيتاء الزكاة: إخراج زكاة المال المعروفة.

وهناك معنى آخر مأخوذ من قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، وهو تزكية النفس وتطهيرها وتهذيبها وتنقيتها وصقلها والمؤمن الكامل الإيمان هو الذي يفعل هذا وهذا فيكون حريصاً على زكاة ماله وزكاة نفسه، وكلاهما موردان يسقيان شجرة الإيمان في قلبه.

د- الوفاء بالعهد.

وهو مأخوذ من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

وهذه تبرئة لهم من صفات المنافقين "**إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا اؤتمن خان**"، والمؤمنون الكمّل إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدون الأمانات إلى أهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا وفواْ بذلك، لا يغدرون ولا ينقضون مواثيقهم وعهودهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

وكما تدارسنا سابقاً أن نقض العهد شديد وخاصةً على القلب.. فإياك أن تنقض عهداً فتُبتلى في قلبك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

النتيجة: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٧]. فكلما كنت أكثر صدقاً ووفاءً وأمانةً فهذه كلها روافد تسقي شجرة الإيمان.

هـ- الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس.

البأساء: الفقر، الضراء: المرض، حين البأس: القتال.

الصبر من أقوى وأكبر وأعظم موارد الإيمان، الصبر بكل أنواعه: الصبر على الطاعة- الصبر عن المعصية- والصبر على أقدار الله.

* **الصبر على أقدار الله:** فهو الصبر على المصائب والنكبات والأقدار المؤلمة من موت وفقد ومرض وحزن وهم وغم. يقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١].

يقول المفسرون: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم. هذا الرضا والتسليم من الإيمان..

* **الصبر عن معصية الله:** وذلك حين تُعرض المعصية على الإنسان وتُزيّن له ويشتهيها ويتمناها ثم يبدأ يجاهد نفسه مجاهدة عظيمة، إن صح الوصف لا تكون مجاهدته إلا بشق الأنفس من أجل ألا يقع ولا تنزلق قدمه فيها بالرغم أنه يريدها.

هذه المجاهدة من الإيمان وتزيد الإيمان، وهي مجاهدة يحبها الله ويلطف الله بصاحبها ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] وهذا وعدٌ من الله أنه لن يضيّع من جاهد نفسه. ومن تصبّر يصبره الله، من صبّر نفسه عن المعصية وحاول أن يفر منها ولا يواجهها ولا يقترب فهو موعودٌ بالتوفيق.

* أما **الصبر على الطاعة:** فالثبات والاستمرار على الطاعة وخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشواغل والصوارف والملهيات والمعيقات وعظمت الفتن، فعلى الإنسان أن يستحضر أنه محتاج إلى صبرٍ ومصابرة، وأن يستحضر عِظَم أجر العمل فأجر العامل بأجر خمسين من صحابة رسول الله ﷺ لشدة الغربة وقلة المعين على الخير، وهذا من رحمة الله بنا.

و- حفظ اللسان.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٣]. اللغو: كل كلام لا خير فيه وكل عمل لا خير فيه.

فمن شعب الإيمان ومن صفات المؤمنين الكمّل أنهم يتركون كل ما لا خير فيه من قول أو فعل وترك الفضول. وترك اللغو من الوسائل التي تسقي شجرة الإيمان، ويكفينا قول رسول الله ﷺ: "**أمسِك عليك لسانك**"[١] وقوله: "**من صمت نجا**"[٢]، وقوله: "**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله**"[٣].

فهنيئاً لمن منّ الله عليه بضبط لسانه وإمساك لسانه وخرج من دائرة (وكنا نخوض مع الخائضين) ليدخل في دائرة (والذين هم عن اللغو معرضون).

هذه بعض شعب الإيمان وليست جميعها، فشعب الإيمان كثيرة، وما من إنسان يرد على القرآن والسنة يطلب السقيا منها إلى وسقي بالإيمان والهداية والنور والبصيرة، لكن القلوب في هذا الزمان انتابها ما انتابها وغطّى عليها من الران ما الله به عليم، إلى الله المشتكى وبه المستغاث وعليه التكلان..

اللهم ردنا إلى كتابك وسنة رسولك رداً جميلاً واسقِ قلوبنا من معينها يا رب العالمين

ثمرات الإيمان.

ومن المعلوم أنه كلما زادت السقيا وقويت الشجرة وكبرت وطرحت ثمارها. وثمرات الإيمان كثيرة، فكما النخلة ثمارها كثيرة ومتنوعة (سكري- برحي- صقعي- روثانة- خلاص- ربيعة...) فكذلك ثمرات الإيمان كثيرة **ومن أعظم ثمرات الإيمان:**

- أن يكون المرء في ولاية الله.

فالمؤمن وإن كان هو في الأرض إلا أنه مع الله عز وجل أي في معية الله وحفظه ونصرته وتأييده، يجعل له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:٢٥٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨]، وكل هذه من مظاهر الولاية.

---

[١] سنن الترمذي (٢٤٠٦)

[٢] مسند الإمام أحمد (١٩٦/٩)

[٣] الجامع الصغير (٥٣٠٦)

- العزة.

وصف الله النخلة أصلها ثابت وفرعها في السماء فهي شجرة عزيزة عالية ترمز لعزة المؤمن وشموخه لما رسخ في قلبه من الإيمان والمؤمن عزيز لا يذل نفسه لمخلوق ولا خضع ولا ينحني، وكما قيل [اقضوا حوائجكم بعزة الأنفس فإن الأمور مقادير].

- المحبة.

فكلما زاد الإيمان زادت محبة الله للعبد، والله إذا أحب عبده رضي عنه ومن رضِي الله عنه أرضاه وأرضَ عنه الخلق وكتب له القبول في الأرض والسماء.

- النور.

النور الذي يقذفه الله في القلب والذي لو جمعتَ مصابيح الأرض كلها لتنور قلبك ما استطعت أن تنيره لأن هذا النور طريقه واحد وهو أن يقذفه الله في قلبك، فكلما زاد الإيمان زاد النور حتى يصبح هذا القلب قلباً أجرداً وقّاداً فيه سراج ينير لصاحبه إنارة دائمة لا تنطفئ.

- الثبات.

يقول الله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

يبقى العبد ثابتاً متمسكاً بدينه أمام كل الظروف وأمام كل العقبات فلا يسقط ولا يتراجع ولا يتنازل ولا ينتكس ولا يكن ممن يعبدون الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه.

هذا ثبات المؤمن، وماذا عن ثبات الكافر؟؟

يقول الله تعالى ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦].

شبه الله ثبات الكافر بشجرة الحنظل التي لا عروق لها ولا جذور وليست ضاربة في الأرض ولا ممتدة، ولو مرّ أحدهم فضرب الشجرة برجله لانتزعت، وقد تنتزع مع أول هبة ريح. حتى ثمرتها ثمرة مرة ضارة مؤذية حتى البهائم لا تأكلها من مرارتها.

فالمثلين أمامك والصورتين أمامك: النخلة والحنظل

الإيمان مثل النخلة في ثباتها وعلوها وشموخها وعمق جذورها وكثرة ثمارها وكثرة نفعها..

والكفر مثل الحنظل في افتراشه فلا عروق ولا جذور ولا ساق ولا ارتفاع ولا ثمر ولا نفع، ما هي إلى ثمرة واحدة مؤذية ضارة..

ومن تأمّل الصورتين عرف عظيم قدر نعمة الإيمان وعرف معنى قول الله تعالى ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات:١٧].

وقبل أن نختم هذه الوقفة التدبرية مع هذا المثل بقي لنا أن نقيس زيادة الإيمان ونقصه من خلال المثل:

فإذا شاهدت نخلاً أخضراً مورقاً نضراً باسقاً شامخاً مثمراً، رؤيته تسرك وتشرح صدرك حتى لو لم تذق طعمه وحلاوة ثمره بعد!!

هذا النخل بهذا المنظر البديع هو صورة لزيادة الإيمان.

إذا شاهدت نخلاً أصفراً يابساً ناشفاً لا ظل له ولا ثمر ولا حلاوة ولا طراوة فهذا منظر نقصان الإيمان.

وإذا نقصت شجرة الإيمان في قلبك ستنقص الولاية والمعية والإكرام والتوفيق والعلم وستتناقص الثمرات.. لذلك أوصى رسول الله ﷺ صحابته بوصية عزيزة نفيسة وقال: "**اسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**".

اللهم جدد الإيمان في قلوبنا
وأحيي قلوبنا بالإيمان
وزيّنا بزينة الإيمان
يا رب العالمين

اللقـــاء الرابع

اللقاء الرابع

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.

قصة إبراهيم عليه السلام.

○ خصّ الله عز وجل إبراهيم عليه السلام من بين بقية الأنبياء بمزيد تخصيص فجعله قدوة وأسوة نتبعه ونتأسى به ونقتدي به وهذا في موضعين من كتابه:

- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].
- ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

○ أثنى الله على إبراهيم عليه السلام ثناءً عظيماً ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

(كان أمةً): أي كان قدوة وإماماً لأنه استجمع الكمال كله في شخصيته.

ولا يمكن للإنسان أن يكون إماماً لكل الناس وقدوةً لكل الناس يقتدون به إلا إذا كان قد استجمع خصال الكمال وكان هو بذاته من الكمّل، وقد استجمع ابراهيم عليه الصلاة السلام خصال الكمال وخصال الخير وأمور العبودية.

والكمال توفيقٌ من الله، والله يختار ويصطفي ويجتبي من يشاء من عباده فيكمّله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(قانتاً لله): مطيعاً لله قائماً بما أمره.

(حنيفاً): والحنيف هو المائل.

- لماذا وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بالمائل؟

لأنه كان مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ولم يكُ من المشركين.

○ ومن فضائل إبراهيم عليه السلام التي ذكرت في القرآن أيضاً أنه "خليل الرحمن"، فقد قال تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥].

* متى يقال للعبد أنه خليل؟

- الخلّة: المحبة الصافية الخالصة
- الخلّة: المسكنة والحاجة.

فإذا أخذنا اللفظ الأول فلا يُقال للعبد أنه خليل إلا إذا تخللت المحبة مسام قلبه وشعبه فامتلأ هذا القلب عن آخره بهذا الحب.

وإذا أخذنا اللفظ الثاني "المسكنة والحاجة فلا يقال للعبد أنه خليل إلا إذا أنزل حاجته ومطلوبه وسؤاله بربه فأصبح هو ملاذه ومقصوده.

إذا فهمت هذين المعنيين يصبح مقتضى الخلّة أن تملأ المحبة شغاف قلبك وأن لا تنزل حاجتك إلا بربك فقط.

** وتأمل حال إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار، وليست أي نار!! بل إن قومه بنوا بنياناً خاصاً لهذه النار واخذوا يجمعون كميات كبيرة من الأخشاب والحطب وجلسوا أياماً وهم يجمعون وأياماً وهم يشعلونها حتى إن الطائر في السماء إذا مرّ من فوق هذه النار يسقط ميتاً من حرارتها ولهيبها!! ثم جرّدوا خليل الله وأبو الأنبياء وسيد الحنفاء، جرّدوه من ملابسه وقيدوه ثم قذفوه في النار.

حتى هذه اللحظات العصيبة والشديدة والحرجة والتي يكون الإنسان فيها أحوج ما يكون لأي معين ولأي نصير، حتى في هذه اللحظات لم يُنزل إبراهيم عليه السلام حاجته إلا بالله ولم يتعلق قلبه إلا بالله وقال (حسبي الله ونعم الوكيل) لأنه يعلم أن أمره كله بيد الله، فجاءت الإجابة من الله (يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم).

أرادَ قومهُ أن يحرقوه ويخذلوه فخذلهم الله ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠].

فكان أول من يُكسى يوم القيامة[١] هو إبراهيم عليه السلام والجزاء من جنس العمل.

○ ومما يحسن بنا ذكره في هذه المقدمة عن إبراهيم عليه السلام أنه كان عظيم الشبه بنبينا محمد ﷺ كما جاء في صحيح البخاري "**أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم**"[٢].

---

[١] البخاري (٣٨٦/٦) ومسلم (١٩٣/١٨)

[٢] فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨٥/٦)

- ولما عُرِج بنبينا إلى السماء السابعة مسنداً ظهره للبيت المعمور سلم عليه ورحّب به وقال "**مرحباً بالنبي الصالح بالابن الصالح" ثم قال "أقرئ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان**[1] **وأن غراسها "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله"**[2].

وهذا من عظيم نصحه لأمة محمد ﷺ بأن يكثروا من غراس الجنة ويبين لهم بم يكون هذا الغرس.

ومن الناس موفقين مسددين يغرسون أشجاراً ونخيلاً ليلاً ونهاراً من كثرة التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير. وهناك والعياذ بالله من تمضي عليهم الساعات تلو الساعات ما تحركت شفاههم بتسبيحة واحدة. والموفق من وفّقه الله.

حياته ودعوته:

إبراهيم عليه السلام كانت دعوته في ثلاثة أقاليم كبار (العراق، الشام والحجاز).

أما العراق ففيها وُلِد، في أرض بابل. وبابل كانت أرضاً مليئةً بالشرك فيها عبّاد أصنام وفيها عبّادٌ للكواكب والنجوم بل وفيها طاغية ادّعى الربوبية وهو ملكها النمرود.

* نشأ إبراهيم في هذه الأجواء الشركية لكنه نشأ على التوحيد، هداهُ ربه منذ صَغرِهِ إلى الفطرة السليمة ونفّره من عبادة الأوثان ونفّره من عبادة النجوم والكواكب ولم يسجد لصنم قط ولم يبِع صنماً قط ولم يشارك والده آزر وهو الذي كان يصنع الأصنام ويتاجر فيها لم يشاركه قط في هذه التجارة الخاسرة.

وهذا يدلك على عظيم عناية الله بإبراهيم عليه السلام وأن الله تولاه منذ صغره، ومن تولاه الله دلّه عليه وأرشده إليه وهذا مصداق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١].

* بدأت بعثته في أرض العراق وبدأ في دعوة والده. وأكثر سورة فصلت الحوار الذي دار بينه وبين والده هي سورة مريم ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾ [مريم:٤٢-٤٨].

وتأمل كيف كان إبراهيم شديد اللطف والملاينة والأدب مع والده وما زال يكرر (يا أبت يا أبتِ يا أبتِ) ويكررها ويستثير عاطفة الأبوة في والده. ولا تنسى أيها المتأمل أن هذا الأسلوب الراقي العالي من ابن هو نبي، ومن أولي العزم من الرسل، بل هو خليل الرحمن، إلى من؟؟ إلى أب كافر يصنع الأصنام!!

---

[1] قيعان: سهول واسعة فسيحة

[2] أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)

تأمل أيضاً كيف قابل هذا الأب أدب ابنه وحنوّه ولينه وقال ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾. قابله بالكبر والعناد والطرد والتهديد بالرجم فلم يزد إبراهيم عن أن قال (سَلَامٌ عَلَيْكَ) أي أنت سالمٌ مني يا أبي لن ينالك مني أذىً، وأيضاً (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) أي مكرماً لي، براً لطيفاً بي.

وقفة تدبرية..

هذا الموقف يعطينا درساً تربوياً قوياً جداً في البِر وفي حُسن الصحبة وحُسن التعامل مع الوالدين وخاصةً لكل من يشتكي من الوالدين.

نعم أنت قد تُبتلى بوالدين لا يعينانك على البر..

قد تُبتلى بوالدين قاسين ظالمين، عشرتهم سيئة، لا يقدّران المعروف، لا يشكران الجهد، ومع ذلك اعلم أن هذا لا يعفيك من البر ولا يُسقط عنك البر بل يبقى حقهم في البر ثابتاً...

نحن مأمورين بالبر وحسن الصحبة حتى لو كانا مشركين ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]. هذا هو البر الحقيقي أن تتحمل القسوة وأن تتحمل الشدة والغلظة والجفاء وأن تتحمل الكلمات والمواقف التي تصدر من الوالدين وقد تؤلمك أو تحزنك أو تبكيك أو تشعر أنهما ظلماك ومع ذلك تستمر أنت كما أنت على نفس إحسانك ومعروفك وخدمتك وابتسامتك وعطاءك.

هذا هو البر الذي يكفر الكبائر، هذا هو البر الذي يوصلك لأعلى المنازل، هذا هو البر الذي يعد من أعظم الحسنات الماحية، وثق أنه ما من معروفٍ أو صبرٍ أو جهدٍ أو خدمةٍ أو نفقةٍ بذلتها من أجل الوالدين إلا وهي مدخرةٌ لك عند ربك، فمن وفّى لوالديه وفّى الله له، ومن أحسنَ أحسنَ الله إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]. سيدخر الله لك معروفك وبرك ويوفيك به بأحسن ما يكون الوفاء.

ولا بد من التذكير بأن باب الوالدين من أسرع الأبواب قفلاً على العبد. بمعنى أن من لم يعرف قدر نعمة الوالدين وانشغل وانصرف وتأفف وتضجر قد يحول الله بينه وبين البر، قد يحول الله بينه وبين هذا الباب الذي كان مفتوحاً له للجنة وكانت الجنة قريبة منه، فربما أنه كان يسكن مع والديه أو أحدهما في نفس المنزل أو نفس العمارة أو نفس الحي لكنه حرم نفسه من الجنة!!

ولن يعرف طعم هذا الحرمان إلا إذا وضع التراب عليهما ورجع إلى بيتهما ووجده خالياً منهما، مكانهما فارغ، أصواتهما اختفت، طلباتهما انتهت، كل شيء انتهى، عندها سيتمنى لو عادا إلى الدنيا حتى لو ضرباه أو اتعباه أو قسيا عليه لكن هيهات هيهات فقد قُضي الأمر...

فراجع نفسك واغتنم حياة والديك وتدارك ما يكمن تداركه فإن الباب ما زال مفتوحاً..

* دعا إبراهيم قومه وناظرهم وخاطب عقولهم وأقام عليهم الحجة، وبيّن لهم أن هذه الكواكب والنجوم والشمس والقمر ما هي إلا مخلوقة مربوبة مدبّرة مسخّرة تطلع وتغيب وتظهر وتختفي ولا تصلح أن تكون إلهاً ورباً، لأن الرب لا يمكن أن يغيب عن ملكه فإذا غاب فمن يدبر أمر الكون ومن يدبر أمر المخلوقات؟!!

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٧٦-٧٨].

* توجه أيضاً إلى عبّاد الأصنام وبيّن لهم أنها لا تضر ولا تنفع وأنها عاجزة تمام العجز ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢]، ثم كسر أصنامهم وأبقى كبيرهم وعلّق الفأس برقبته لعلهم إن سألوه من كسر أصنامنا؟ من كسر آلهتنا؟ ووجدوه لا يجيبهم ولا ينطق ولا يتكلم أن يعودوا لرشدهم وعقلهم ولكن مع ذلك اصروا على باطلهم وكفرهم وضلالهم.

* حاول إبراهيم عليه السلام واجتهد وبذل جهده وكان حريصاً على هدايتهم، لكن كما قلنا في أول لقاء أن من ختم الله على قلبه لا تملك أنت هدايته.

لم يكن أمام إبراهيم عليه السلام إلا أن يتبرأ من والده وقومه، ويعتزلهم ويهاجر من أرض العراق ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]. وهو أول من هاجر في سبيل الله وترك اهله ووالده وموطنه وهاجر إلى بلاد الشام إلى الأرض المباركة ونزل فيها وأقام فيها ومعه زوجته سارة وهي من أجمل نساء العالمين، وأثناء إقامته في فلسطين أصابهم جدب وقحط وجوع وشدة فأخذ زوجته وارتحل إلى مصر.

* في أرض مصر وقعت له حادثةٌ مهمة وذلك أن ملك مصر آنذاك كان جباراً من الجبابرة فإذا سمع عن امرأة جميلة أخذها لنفسه، فلما سمع عن سارة وجمالها وأنها في أرض مصر أرسل لإبراهيم يسأله عنها فقال له إبراهيم عليه السلام: أختي!

وهذا من التورية فهو يقصد أختي في الإسلام، وما الذي دعاه لهذا؟؟ لأنه في دين هذا الملك لا يأخذ الأخوات، فقال إبراهيم لسارة (يا سارة إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإنه سألني عنك فقلت أختي)، فلو علم أنها زوجته سيأخذها.

هذا هو دينه!! بالرغم من هذا لم يكترث وأمر بإدخال سارة فادخلت عليه فقالت: "اللهم إن كنتَ تعلم أني آمنتُ بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي فلا تسلّط عليّ هذا الكافر".

فلما رآها فُتِن بها واقترب منها وأراد أن يمسّها فشُلت يده وأُعيقَ عنها فقال لسارة: ادعُ لي ولا أضُرك، فدعت فارسله الله.

فرجع مرة أخرى يريد أن يمسّها فشُل وقُبِضت يده فقال لها مرة ثانية أدعُ لي ولا أضُرك، فرجع للمرة الثالثة وأيضاً شُلّ.

بعد هذه المرة دعا حراسه وخدمه فقال لهم: أخرجوها من عندي لم تأتوني بإنسانة فقد أتيتم لي بشيطان، فأخرجوها[1].

وقفة تدبرية..

الذي حصل لسارة زوج إبراهيم عليه السلام هي صورة من صور حفظ الله لأوليائه. والله عز وجل هو الحفيظ، والحفظ صفة من صفاته، والله عز وجل إذا تولى حفظ شيء يسر له من الأسباب ما لا يخطر على بال أحد.

إذا حفظك الله فلا يستطيع أحد ان يضرك، وإذا حفظك الله لا يستطيع أحد أن يؤذيك لا من الإنس ولا من الجن ولا من السحرة ولا من الكائدين ولا من الطغاة، إذا حفظك الله فلا يستطيع أحد أن يفضحك وهذه من أعظم صور الحفظ التي يجب أن لا يُغفل عنها خاصةً في هذا الزمان الذي تسلّط فيه الناس على أعراض بعضهم..

○ كل إنسان له ستران: ستر ما بينه وبين الله عز وجل، وستر بينه وبين الخلق.

من حافظ على الستر الذي بينه وبين الله، حافظ عليه في خلواته، وحافظ عليه في لسانه وحافظ عليه في ذهنه وخطراته وخطواته، وفي الأوقات واللحظات التي لا يراه فيها إلا الله ولا ينظر له فيها إلا الله، من حافظ على هذا الستر الذي بينه وبين الله حفِظ الله له الستر الذي بينه وبين الخلق. لا يهتك الله له ستراً أبداً..

حتى لو ان أحداً حاول أن يؤذيه أو ينتهك شيئاً من عرضه فإن الله يسخر له من يدافع عنه ومن يلملم عيوبه حتى لا تنتشر، بل إن الله يستر حتى عيوبه في تعامله مع الناس. لماذا؟

لأن هذا الإنسان قد حافظ على الستر الذي بينه وبين الله فتكفل الله له بالحفظ والحفيظ يحفظ من يحفظونه.

وما أعظمها وما أصدقها من جملة إن وقعت في القلب وشعر بها الإنسان، ثم أدار ذاكرته وعرف نقائصه ومثالبه ثم رأى عظيم ستر الله عليه فيعلم أن هذا هو من حفظ الله وستره وإن كان هو في قرارة نفسه يعلم بتقصيره وتفريطه وشدة زللـــه ولكنه ستر الله.

نعود لقصة الملك مع سارة..

بُهِر وفُتِن بجمالها فقال هذه لا تصلح أن تخدم نفسها فأخدمها هاجر جاريةً تخدمها.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير

تأمل أيها القارئ.. وأنا أكتب كلمة تأمل أشعر أنها تختلف عن كل المرات التي كتبت فيها هذه الكلمة، هو شعور أرجو أن يصل إليك قبساً من صدقه وحرارته..

تأمل كيف أن الله يقلّب أحوال العباد، وفي هذا التقليب لطفٌ لا يعلمه إلا من عاشه وتعايش معه وعرف ماضيه ثم يرى حاضره وما هو فيه؟ ماذا كان وماذا أصبح؟؟ وكيف أخرجه الله من الظلمات إلى النور؟ كيف أنقذه؟ وكيف هيأ له الأسباب تلو الأسباب حتى يتغير وينصلح ويستقيم قلبه؟؟

ها هي هاجر مجرد جارية عند ملك كافر، من كان سيأبه لهذه المرأة؟ ومن كان سيعرفها أو ينظر إليها؟ ولكنه قَدَرُ الله، ولُطف الله، وولايةُ الله، لما أرادَ لها أن تكون أماً لنبي يخرج من سلالته سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ. هيأ الله لها الأسباب ونقلها من حال إلى حال..

إنه الله جل جلاله وصدق من قال (من عرف الله أحبه واقترب منه وأنِس به).

اللهم لا تحرمنا لذة معرفتك والأُنس بك والقرب منك يا رب العالمين

_ ما الذي حصل لهاجر وإبراهيم وسارة؟؟

رجع إلى أرض فلسطين وأكمل حياته فيها، كان يدعو الله أن يرزقه الذرية الطيبة ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] وظل عشرون عاماً يدعو ربه.

أدركت سارة أنها عقيم لا تلد ورأت رغبة زوجها بالولد وشغفه بالذرية الصالحة فأهدته جاريتها هاجر وطلبت منه أن يدخل بها لعله أن يُرزق منها الولد، وفعلاً دخل بها.

حملت هاجر فبدأت الغيرة تدب في قلب سارة، فخافت هاجر على نفسها وعلى ابنها الذي وضعته فجاء الأمر من الله لإبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وابنها من أرض فلسطين إلى الحجاز ووصل بها إلى مكة، وكانت مكة آنذاك أرضاً لا زرع فيها ولا ماء ولا شجر ولا إنس ولا سكان ولا أحد، أرضاً خاوية جرداء ليس فيها إلا الجبال والرمال وصوت الرياح...

* وضعها هي وابنها في هذه الأرض ووضع عندها جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم مضى بدون أن يكلمها فأخذت تتبعه وتجرى وراءه يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟ وهو لا ينطق. أخذت تكرر تنادي تلح: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؟ وهو ملتزم الصمت. ففهمت أن الأمر خارج عن إرادته واختياره فقالت: ألله أمرك بهذا؟ قال نعم، فقالت إذاً لن يضيعنا الله.

وعلى قدر يقين العباد بربهم سيُعطُون، الكفاية من الله تأتي على قدر اليقين. كان يقينها أن الله لن يضيعها هي وابنها فاستسلمت ورضيت وانقادت ورجعت إلى ابنها وسقاءها وتمرها وجلست تنتظر ما الله فاعلٌ بها هي وابنها.

* مضى إبراهيم عليه السلام ولن ننسى أنه أب وزوج وصاحب قلب رحيم ولا يهون عليه أن يتركهم في هذا المكان الموحش المنقطع الذي ليس فيه أحد، فما أن وصل إلى جبل لا تراه هاجر إلا ورفع يديه ودعا بدعوات مباركات ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾ [إبراهيم].

وقفة تدبرية مع دعوات الخليل عليه الصلاة والسلام.

نحن قد أُمِرنا بالإقتداء والتأسّي به، وقد أثبت القرآن لإبراهيم عليه السلام خمسة وعشرين دعوة وهو من أكثر الأنبياء الذين أثبت القرآن دعواتهم فمن المؤكد ان هذا له حكمة وله أسرار.

وأول هذه الأسرار أن بين إبراهيم عليه السلام وبين الدعاء صلة وثيقة جداً، علاقة ديمومة وإستمرارية لا تنقطع.

كثرة الدعاء والإلحاح فيه من أعظم الدلائل على تحقيق التوحيد وأن هذا العبد يقينه بالله وبقدرة الله عظيماً لذلك هو يدعو الله في كل حين وفي كل وقت.

* تميزت دعوات إبراهيم عليه السلام بكثرة ثنائه وتمجيده على ربه، وهذا أدب عظيم من آداب الدعاء. وكلما بدأ العبد الدعاء بالثناء والتمجيد كان أقرب إلى الإجابة.

* كذلك تميزت دعواته أيضاً بظهور الإخبات والتذلل وهذا أوضح ما يكون **(بعد بنائه الكعبة وعند رفع قواعد البيت)**، تطامن وتواضع وأخبت وتذلل وقال ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

كان وهيب بن الورْد أذا قرأ هذه الأية يبكي ويقول [يا خليل الرحمن ترفع قوائم البيت وأنت مشفقٌ أن لا يُتقبل منك][1].

* مما تميزت به دعوات الخليل عنايته بأمر ذريته لما قال الله عز وجل له: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة:١٢٤] رغبةً أن يستمر الخير في ذريته. وكل هذه دروس بليغة لنا حتى نعتني بأمر الذرية والدعاء بصلاحهم فهذا هو ديدن الأنبياء.

---

[1] نقلاً عن أحد الدروس العلمية للشيخ عمر المقبل (دعوات الخليل).

فالولد إذا أصلحه الله بلا شك هذا مكسبٌ عظيمٌ للإنسان وقد كان دعاء عباد الرحمن ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، وحتى إبراهيم عليه السلام كان يدعو ربه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠].

فالأبناء رزق، وصلاح الأبناء رزق، والأرزاق لا تطلب إلا من الله، ومهما أشار الناس عليك بحلول، ومهما أظهرت النتائج من نجاح أسلوب معين في التربية فلا يمكن الإستفادة من هذا الحل أو من غيره إلا بالتذلل لله عز وجل والتعلق به وطلب العون منه واليقين بأنه لا مُصلح لهؤلاء الأبناء والبنات إلا ربهم، فأول الحلول الدعاء، وأوسط الحلول الدعاء، وآخر الحلول الدعاء. فالدعاء هو مفتاح كل خير وبه يستمطر العبد رحمة الله.

وقفة تدبرية مع الأبناء والتربية.

كلنا يعرف قصة ابتلاء إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل.

الذي يستوقفنا في هذه القصة العبارات العظيمة التي تفوه بها إسماعيل حين أخبره والده أنه رأى في المنام أنه يذبحه!!

فلم يقل له يا أبي كيف تقتلني؟ أهذا دين؟ أهذه رحمة؟ أهذه إنسانية؟ ما الذنب الذي ارتكبته؟ أو تذبحني وتضحي بي من أجل مناماً؟ لم يقل له هذا أبداً ولم يتلفظ بهذه الكلمات وإنما قال ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

الله أكبر! كلمات ملؤها التسليم والقبول والرضا ولا يمكن أن تصدر هذه الكلمات إلا عن قلب تربى على التوحيد وتربى على السمع والطاعة لأوامر الله، لا يمكن أن تصدر إلا عن ابن رباه والده فأحسن تربيته.

التربية عبادة عظيمة يتقرب فيها الإنسان لربه ولكن أكثر الناس اليوم يعطي رعايةً وليس تربيةً وهناك فرق كبير بينهما:

الرعاية: أن تهتم بمأكله ومشربه وملبسه وتوفير السكن والعلاج والمال وبقية متطلبات الحياة لهذا الإبن.

أما **التربية:** هي أن تزرع في ابنك ما يُرضي الله عز وجل، أن تزرع وتغرس في ابنك ما يسعدهُ في الآخرة، أن تقوم على تربية الروح والعقل، تغرس فيه القيم والأخلاق والمبادئ. لماذا؟

حتى يكون هذا الإبن سبباً في دخولك الجنة، وحتى يشفع لك في الآخرة، حتى يكون سبباً في أن تكثر الهدايا التي تصلْ إليكَ وأنت في قبرك "ولدٌ صالحٌ يدعو له"، حتى ترتفع درجتك بسببه فتسأل يا رب بمَ بلغتُ هذه الدرجة؟؟ فيقول باستغفار ابنك لك.

فرق كبير وكبير جداً بين ابن يكون سبباً في سعادة والديه في الدنيا والآخرة. وأهل التربية يقولون: بقدر ما تعطي أولادك سيعطونك والجزاء من جنس العمل. والمقصود أنه بقدر ما تبذل من تعب وجهد في التربية تتعلم، تستفسر، تسأل أهل الخبرة، تحضر الدورات والدروس في التربية، فلن يضيع الله جهدك.

التربية هي رصيد محفوظ لك، رصيد مدّخر لك تلقى الله به، وبقدر ما معك من الصدق في طلب العون من الله على التربية الصالحة فإن الله سيعينك وسيصبح أولادك صالحين مباركين. ولن يفوتني أن أذكرك بوصية الله لك ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء:١١] وسيرى الله ما أنت فاعلٌ بوصيته؟؟

* **الوقفة التربوية الثانية** من موقف إسماعيل مع والده أن هذا الجواب وهذه الكلمات وهذا الاستسلام لم يكن ليصدر من إسماعيل عليه السلام لو كان حبل الوصل والعاطفة والحوار بينه وبين والده منقطعاً.

أكيد أن هذه الكلمات سبقتها علاقة حميمة بين الابن وأبيه، فلو كان بينهما فجوةً وتحطيماً وانقطاعاً ومسافةً فمن المستحيل أن يكون الحوار بينهما بهذا التألق والسموّ والروعة وفي هذا إشارة بأن لا تكثر الفجوات والمسافات بينك وبين أبنائك ولا تبعد المسافات لأن هذا خلاف هدي الأنبياء.

– نوح عليه السلام إلى آخر لحظة وهو ما زال يقرّب المسافة بينه وبين ابنه ويناديه يا بنيّ اركب معنا لا أريدك إلا أن تركب فقط. لم يقل له كلمة بذيئة ولا نابية ولا شتمَ ولا احتقر، إنما هي كلمة رفق نادى بها ابنه (يا بني اركب معنا).

– نعم بكلمة تستطيع أن تغير نفسية ابنك، بكلمة قد تحطمه، وبكلمة قد ترفع معنوياته. لذلك جاءت الشريعة لتؤكد على أهمية الكلمة الطيبة "والكلمة الطيبة صدقة" وأولى ما تكون هذه الكلمة لأولادنا وبناتنا، فالقلوب لا تملك بالإجبار وممارسة أسلوب الضغط والقهر والوصاية والأوامر، بل تريد من يرحمها، من يرفق بها. والكلمة إذا وجدت في القلب محلاً نفعت..

نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يصلح لنا ذرارينا
وأن يحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم
ويكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ويجعلهم من الراشدين

ومن باب إتمام الفائدة في موضوع التربية أنصحك قارئي الكريم بالسماع لعدد من المستشارين التربويين وعلى سبيل المثال لا الحصر:

د/ عبد الرحمن آل عوضة.

د/ علي الشبل.

د/ عبد الكريم بكار

د/ محمد الدويش [موقع المربي].

د/ عبد العزيز السدحان [موقع معالم إسلامية].

د/ مريد الكلاّب.

موقع المسلم للدكتور ناصر العمر [ملف التربية].

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى

انتهيت من كتابته
الثلاثاء ١٤٣٤/٥/٢٢هـ
الساعة الثانية عشرة ظهراً
ولله الحمد